زدني علماً

فرنان شنيدر

تاريخ الفنون العسكرية

ترجمة
فريد أنطونيوس

منشورات عويدات
بيروت . باريس

راجع وحقق المصطلحات العسكرية الواردة في هذا الكتـــاب المؤرخ المعروف **النقيب جوزف نعمه** . فله شكرنا العميق وتقديرنا .

فرنان شنيدر

تاريخ الفنون العسكرية

ترجمة

فريد أنطونيوس

منشورات عويدات
بيروت - باريس

جميع حقوق الطبعة العربية في العالم محفوظة لدار
منشورات عويدات
بيروت – باريس

وذلك بموجب اتفاق خاص مع المطبوعات الجامعية الفرنسية
Presses Universitaires de France

الطبعة الثانية ١٩٨٢

مقدمة

إن المؤرخ الباحث في تقدم الفنون العسكرية ، في حقبة طويلة من التاريخ ، ليدهشه تطورها المستمر خلال العصور . ومن الثابت أن ظهور بعض الوسائل الجديدة ، كالمدفعية ، أو تطبيق المذاهب البدائية ، كمبدأ « المناوشة بالزمر الكبيرة » في بدء حروب الثورة الفرنسية ، جعلت معاصري هذه الحوادث يعتقدون أن هذه المبادىء ستحدث تغييراً جذرياً في فن الحرب ، سواء أكان ذلك في حقل التكتيك البسيط أو في حقل الاستراتيجية ولهذا قال « غوته » في معركة فالمي : « في هذا اليوم ، ومن هذا المكان، ينطلق عهد جديد في تاريخ العالم ، ويمكنكم القول أنكم كنتم هناك » .

ومع هذا ، إذا نظرنا إلى معركة فالمي ، من خلال تطور الفن العسكري عموماً ، فلا يبدو لنا على الإطلاق أنها نقضٌ للفن العسكري السابق لها ؛ كما أن بعض الاختراعات الحديثة كالآلات البخارية ، وحتى الطائرات ، التي حملت إمكانات جديدة للأعمال الاستراتيجية ليست سوى حلقة شبيهة بغيرها من الحلقات في تطور يلفت استمراره الانتباه .

والواقع أن التاريخ العسكري - منذ عصر جدودنا سكان المغاور إلى عصرنا الذري — قد ساهم مساهمة فعّالة في التطور المستمر للعلوم البشرية ، هذه العلوم التي ساهمت هي أيضاً ، بنسبٍ متفاوتة في تحسينه وازدهاره . إن فنون القادة الكبار قد تأثرت تأثراً كبيراً بعلوم معاصريهم وطرق تفكيرهم . فهؤلاء القادة

لم يفيدوا من اختراعات عصرهم فحسب ، بل انهم نشأوا على أفكار رؤسائهم السائدة في زمانهم . فالاسكندر الكبير اقتبس تكتيكه من الفكر الإغريقي ، كما استمد بونابرت غذاء نبوغه من نظريات مفكري القرن الثامن عشر، عسكريين كانوا أم مدنيين . أضف إلى ذلك أن المؤلف القيّم الذي وضعه «كلوزويتز» عن الحرب ، وهو أفضل ما كتب في باب الفنون الحربيــة ، لا يُعتبر ثمرة دراسة لفنون نابليون فقط ، بل انه الى ذلك دراسة لسلسلة من المذاهب المستوحاة من أفكار مَنْ هم أمثال كَنْت وهيغل .

وهكذا يبدو تطور الفكر العسكري ، خلال التـاريخ ، خلقاً مستمراً . إلا أنه ينطوي ، ككل تطور بشري ، على حقب من النضوج مطبوعة بطابع مميّز ، وعلى حقبٍ من التخلف يكون فيها الجهد المذهبي وروح الاختراع لدى الاستراتيجيين في هجوع . ثم تهب من جديد افكار نيّرة ، فتقتبس من اختراع مادي ، أو من ايديولوجية ديناميكية مفاهيم تسجل بعض التقدم . إن تطور الفكرة العسكرية يعكس إذن بدقة مأساة أمم تؤمّن كيانها ، وتعمـــل على تطويره ، ثم تفقده تماماً . وتاريخ الصراع الدموي بين الأسر ، والقبـــائل ، والملوك ، والأمم ، والأجناس البشرية ، والقارات ، وهو مرآة الإنسانيـة ، يتخذ مكانه على صعيد التطور السياسي ، والاقتصادي ، والاجتماعي ، والفلسفي ، والمادي ، لدى الشعوب ؛ مما يعطي دراسة الفنون العسكرية صفة امتداد قلمـا بلغتها الدراسات في سائر حقول الفكر ، حتى اننا يمكننا القيام بعمليـــة فرز فننتقي من حقب النضوج والتخلف ، سواء بسواء ، بعض مراحل الفن الحربي المفيدة بنوع خاص . تلك هي غاية هـــذا البحث الموجز الذي لا يدعي رسم لوحة كاملة لتطور قديم قِدَم العالم ، بـــل يبغي بكل تواضع تنبيه أفكار القارىء الى بعض المشاهد البارزة من مأساة الصراع الأبدية وتفسيرها معتمـداً أفكار الذين وجّهوها .

١

نظرة الى الماضي
من العصور القديمة حتى القرن السابع عشر

إن الحدود المحصورة لهذا الكتاب الموجز تجبرنا على تكريس الجوهري من دراستنا للعصور الحديثة ، مع أن أقدم بحث عسكري معروف ظهر في الصين ، في القرن السادس ق. م. ونقصد بذلك « قواعد الفن العسكري » لمؤلفه سان تسه أو سان تسي. ولما كنا لا نستطيع أن نحلل –بالتفصيل– هذا المؤلف القيّم ، فإننا نكتفي لدى مرورنا به – وهذا أقل ما يجب – بإلقاء التحية على مؤلفه العبقري ، أحد آباء كلوزويتز الروحيين . لقد كان سان تسه فيلسوفاً كما كان محارباً ، فدرس الحرب في أكثر مظاهرها شمولاً ، ووضعها في إطارها السياسي والاجتماعي ، وقدمها كفرع من فروع فن الحكم . وفي وقتنا الحاضر يسترشده القوّاد الحاليون في اليابان وفي الصين ، ويؤكد ماوتسي تونغ ، بصورة خاصة ، أنه تلميذه . والواقع أن سان تسه عرف كيف يميز ، من خلال أنظمة بلاده وأنظمة عصره ، ما هو ثابت في الحرب على كر الأيام ، وعرف كيف يوضح بلغة مجازية قريبة من الشعر ، ما نسميه في أيامنا الحاضرة « العناصر التي يعتمدها القائد في اتخاذ قراراته » ، أي : المهمة ، والعدو ، والوسائل ،

والأرض . وكرس لها انتباهه بالتتابع . وقد حدد مبدأ توفير القوى ، وعين تعييناً دقيقاً قيمة قوى القائد المعنوية ، وقيمة عبقريته ، مستخرجاً مفاهيم يعتبرها معاصرونا بوجه عام – وهم على خطأ – كأنها من مكتسبات العلم العسكري الحديث .

ولا غرو في أن دراسة العصور القديمة ، اليونانية والرومانية – وهي أكثر قرباً منا – لا تخلو من فائدة تستهوينا ، لا بسبب الفن المستهلك الذي استخدم في الانتصارات التي حققها قادة عالم البحر المتوسط الكبار حينذاك وحسب ، بل كذلك بسبب المرتبة السامية التي وصلت اليها أنظمتهم العسكرية . فقد كانت هذه الأنظمة ، في العصر المقدوني بصورة خاصة ، قد بلغت عند اليونانيين وفي نهاية الجمهورية وبداية الامبراطورية في روما ، درجة نادرة من الكمال . ولا يسعنا هنا إلا أن نحيي الكتيبة الاغريقية ، الصورة المشرفة « للأمة تحت السلاح » ، المستعدة لمجابهة عدو خارجي . ونكتفي كذلك – لأننا لا نستطيع شيئاً آخر – بذكر الجوقات الرومانية ، رمز امبريالية وديناميكية روما القديمة .

وعقبت القرون الوسطى هذه الحقب التي ازدهر فيها الفن العسكري ، ومما لا ريب فيه أن هذه القرون كانت متأخرة من هذه الناحية عن العصور القديمة ، فطبعت الفنون والأنظمة العسكرية بطابع جديد . فكانت القوات المسلحة حينئذ انعكاساً للعالم الاقطاعي ، وتركز العمل حول الفارس المسلح الذي جعل الحرب الجماعية تختفي ، وكانت مزدهرة في العصور القديمة . وتبع ذلك أن أصبح قوام المعركة ، طوال عصور كثيرة ، سلسلة من المبارزات تحدث في وقت واحد . وبعد حرب المائة سنة ، وعلى أنقاض الإقطاع ، عادت الحرب جماعية قبل أن تصير قومية . وفي نهاية القرن الخامس عشر ظهرت المشاة مليكة معارك المستقبل ، وحلت محل الفروسية التي اتضح أنها انتهت من أداء مهمتها .

وفرض عصر النهضة الذي ثبت السلطـــة الملكية في القرن السادس عشر تجديداً حقيقياً في النواحي العسكرية . فأوجد شارل السابع نظـــام الجيش الدائم في فرنسا . وكان هذا الجيش يتألف من الخيّالة ، وسرايا الخدمـــة ، والمشاة ، والنبّالة الأحرار . إلا أن هذه الفرق كانت قليلة العـدد ، وكان على الملكية أن تلجأ دوماً إلى المرتزقة للقيام بحروبها .

وفي هذا العصر نفسه ظهرت الأسلحة النارية ، وكان وجود الأسلحة الثلاثة في الحروب الإيطالية بشيراً بالعصور الحديثة . وبالمقابل ، فإن عصر النهضة قد اقتبس مذهبـــه العسكري كما استوحىٰ الفن والأدب من دروس مأخوذة من العصور الإغريقية – الرومانية القديمة ، ولم تكن هذه الدروس معروفة تمـام المعرفة في ذلك العصر . فمن دراسة الجوقـات الرومانية والكتيبة الإغريقية وحروبها استلهمت الوسائل التكتيكية في ذلك العصر ؛ ونتج عن ذلـك هذه الصفة الخطية والهندسية التي نجدهـــا في النظريات والأنظمة العسكرية حتى الثورة الفرنسية .

ومع هذا ، فقد أثبتت الأسلحة النارية وجودها بقوة ، وأصبحت المعركة تعتمد على مرحلتين أساسيتين : إطلاق النار ثم الالتحـام . إلا أن تنظيم المشاة وفقاً للشروط الجديدة للمعركة الحديثة استمر وقتـــاً طويلاً . فكانت المشاة تقاوم تأثير النار ، وصفوفها مرصوصة مربعات كثيفة ، مـع الخيالة الثقيلة ؛ بينما تكون الخيالة الخفيفة – وكان عددهـــا يزداد شيئاً فشيئاً – تعمل على جانبيها ، وبينما يكون النبالة وحاملو الأقواس الفولاذية يناوشون أمامهـا . وبالجملة ، فإن التنظيم والفن العسكريين ، حتى نهـاية القرن السادس عشر ، لم يكونا يتوافقان مع إمكانات التسليح الحديث ، ولم تتبع الفكرة العسكريـــة التحسينات التقنية الأخيرة التي عانت منها الجيوش أكثر مما استفادت منها .

٢ الفنون العسكرية في القرن السابع عشر

بقي المشاة حتى نهاية القرن السابع عشر مسلحين بالرماح والبنادق ذات الفتيل (موسكيه Mousquet)، فكان طبيعياً جداً أن يكون إطلاق النار بطيئاً؛ وكان على المشاة — لكي يؤمنوا إطلاق نار متواصل — أن ينتظموا في خمسة أو ستة صفوف، وكان على كل صف أن يتفرّق وفق خطة موضوعة بعد أن يطلق النار. ولقد اعتمدوا في ذلك الحين هذه الحركات الدقيقة، المفرطة في مراعاة الترتيب، التي تنظم بقاء المحاربين في الصف على طريقة حركة فرقة «الباليه» للمحافظة على شيء من النظام بين القطع المقاتلة .

ولم يكن مرمى البنادق إذ ذاك ليزيد عن مائة متر . غير أن أهمية عامل النار أجبرت على وضع المشاة جميعهم صفاً واحداً ليتمكنوا من إطلاق النار . وهذه الأهمية نفسها تشرح اختفاء طريقة الصفوف الطويلة الضيقة التي كانت متبعة في العصر الماضي ، وهو تقليد ، كما أظهرنا في الفصل السابق ، موروث عن الجوقات الرومانية . وأهمية إطلاق النار هي التي طبعت المعارك الحقيقية

في هذا العصر بطابعها النهائي لأنها وضعت الجيش بأكمله صفاً واحداً مع احتمال وقوع خسائر قد تؤدي إحداها الى خسارة الحملة بكاملها .

وفي شروط كهذه لم يكن القادة العسكريون في ذلك العصر يباشرون المعركة قبل أن يضمنوا جميع فرص النجاح الى جانبهم ، ولم يكن التفتيش عن شن المعركة من مقاصدهم الأساسية ، بل على العكس ، كان فن القائد يقوم على تجنب المعركة نظراً لأهمية المخاطرة .

وبالجملة ، فإن التسليح القديم هو الذي صنع تكتيك واستراتيجية القرن السابع عشر وكذلك صعوبة تمويل الجيش : فقد كان الجند آنذاك ثميناً جداً من الناحية المالية ، لكي يعرّض لصدف معركة يشك في نجاحها ؛ وفضلاً عن ذلك ، فإن الإنفاق على وحدات عسكرية في حملة حربية أمر شاق مرهق ، حتى ان كولبير اضطر الى تنظيم الانتاج . أضف الى ذلك أن الحاجة الملحة الى تمويل الجيوش كانت من الأسباب التي دفعت الحكام الى إثقال كواهل المدنيين بالضرائب .

ولكن ، مهما كانت الصفات العامة المميزة التي ذكرناها تنطبق على القرن السابع عشر بكامله ، فإننا نستطيع القول ان هذا القرن عانى بعض التطور الذي يمكن أن يقاس بالنسبة إلى الفرق بين تكتيك الجيوش الملكية قبل غوستاف أدولف والفنون العسكرية في فرنسا سنة ١٧١٥ ، هذه الفنون التي ولدت من تفكير ملك السويد العظيم والقوانين التي وضعها .

●

كانت الجيوش الملكية في ذلك الوقت مؤلفة من مرتزقة يجندون بالقوة في غالب الأحيان ، ويقودهم رؤساء عصابات حقيقيون . وكانت الخيالة لا تزال هي المسيطرة ، تحارب خصوصاً بالسلاح الأبيض ، بينما كان المشاة يستعملون الأسلحة النارية البدائية . وكانت المدفعية في أول عهدها . أما عدد الجنود في القطع المحاربة فيتراوح بين ثلاثين وأربعين ألف رجل .

وكانت المشاة التي تثقل تحركها الرماح الطويلة ، والبنادق (موسكيه) ومذاريها مؤلفة من أفواج ، كل فوج يضم عشر سرايا ، وكل سرية تتألف من سبعين رامياً (موسكتير) تقريباً ، ومن خمسين رمّاحاً ، وعشرين جندياً مزيفاً . وكانت الخيالة تضم أفواجاً يتراوح عددها بين (٥٠٠) و (٧٠٠) رجل ، يتبعون لمختلف أقسام السلاح (مدرّعون ، نبّالة على الخيل ، دراغون ، كرواتيون) . وكانت هذه الأفواج تتفاوت فيها نسبة استعمال الدروع ، وتختلف في الأسلحة .

ولم تكن المدفعية معروفة كسلاح منفصل : فالمدافع تنقل على عربات وتوضع على قواعد ثقيلة جداً ، إلا انها في ذلك الوقت لم يكن يشرف عليها الإخصائيون .

وكان التكتيك ، البدائي ، هو الذي يسمح به التسليح والتنظيم ، ولا سيما صفة التجنيد العادية التي كانت تحدو القادة غالباً الى تجنب المعركة . وإذا حدث أن ووجهت المعركة أو فرضت فرضاً ، نُظّم الجنود صفاً واحداً ، ويكون ذلك مبدئياً في سهل تجاه العدو ، أما المدفعية فتوضع أمام الجبهة ، وهذا يعني أنه يقضى عليها قضاء مبرماً في حالة الفشل .

ويوضع المشاة في القلب ، والخيالة على الجناحين ، ويكون الترتيب على خير ما يرام من التناسق ويلغي الترتيب الخطي كل ضمان ، وبالتالي كل إمكان للمناورة . وهذا التناسق نجده في التشكيلات ذاتها ، المجمعة كتلاً ضخمة ، بسبب ما ينقصها من تلاحم . وها كها كما يصفها كاتب ألماني : كل مربع كان مؤلفاً على الشكل التالي : في القلب مربع كبير من الرماحة ، مؤلف من خمسة وعشرين مربعاً صغيراً ، خمسة منها في الطول وخمسة في العمق ، تضم مائة جندي من حاملي الرماح ، أي عشرة رجال من كل جهة ، مما يجعل المربع الكبير مؤلفاً من خمسين رجلاً في الطول وخمسين رجلاً في العمق ، فيكون المجموع (٢٥٠٠) جندي . وكان هذا المربع من الرماحة محاطاً بأربعة وعشرين

مربعاً صغيراً يتألف كل واحد منهـا من مائة حامل بندقية ، أي عشرة رجال من كل جهة ، أو ما مجموعه (٢٤٠٠) جندي (موسكتير) . وقصارى القول أن كلا المربعين كانا يشكلان معاً مربعاً كبيراً من سبعين رجلاً في الطول وسبعين رجلاً في العمق ، يضاف اليه مـائة رام بالبندقية (موسكتير) موزعين على أربعة مربعات صغيرة قائمة على زوايا المربع الكبير الأربع ، فيكون مجموع ذلك (٥٠٠٠٠) جندي ، نصفهم مسلح بالرماح والنصف الآخر بالبنادق .

ووفقاً لهذه الشروط تصبح المعركة على شيء كثير من السهولة :

– أولاً قصف شديد بالمدافع .

– ثم تتقدم جبهة إحدى الفرق محاطة بخيالتها متجاوزة مراكز المدافع .

– وأخيراً هجوم تقوم به جبهة الجيش ، أو عملية جناح تقوم بهـا الخيالة وحدها ، أو بمساندة المشاة ، بينما يصمد المعسكر المهاجم بنيران البنادق أولاً ثم بمصادمة الرمّاحة .

إن هذه الخطط هي التي استعملها الجنود الملكيون خاصة في معركة ليبزيغ سنة ١٦٣١ .

●

تعرّض غوستاف أدولف لهذا المفهوم الخطي الذي عفا عليه الزمن ، ووضع تكتيكاً جديداً نفذه جيش أعيـد تنظيمه ، جيش متجدد تعوّد الاستفادة من تأثير نيران المدفعية والمشاة .

والواقع أن الجيش السويدي استمد قوته من التنظيم السياسي في السويـد ، وكان الملك هو قائده الأعلى . ولم يكن هذا الجيش مؤلفـاً كما كانت تؤلف الجيوش الملكية من عصابات من المرتزقـة . فمنذ أن تسنّم الملك الجديد العرش هدف إلى إنشاء جيش نظامي وطني . فبلاده إذن هي التي قدمت له نواة المشاة والخيالة (١٢٥٠٠ جندي راجل، و ٢٠٠ فارس) اشترك بهـا سنة ١٦٣٠ في حرب الثلاثين سنة .

وهذا الجيش الصغير ، الكثير التلاحم ، الكثير النظام ، يمكنه بسهولة أن يمتص أجانب متطوعين يخضعون لأنظمته . وكان أفراده يرتدون – وهذا أمر يسترعي الانتباه بالنسبة للعصر – زيا مميزاً لكل فوج . وسوف يسلحه غوستاف أدولف بأسلحة أكثر خفة وأكثر تحسيناً . ففي المشاة أبطل استعمال الدروع ، وخفف البندقية ، ولكنه أدخل الخرطوش ، وهو تقدم ينبغي أن يسجل في القرن السابع عشر ، وفي الخيالة احتفظ المدرعون وخدهم بالدروع ، وتسلح الفرسان جميعهم بسلاح ناري وسلاح أبيض . وأخيراً أدخل « مدفع الكتيبة » وحسّن حصيلة المدفعية باستعمال قطعة تزن أقل من مائة كيلوغرام ، يستطيع أن يجرها رجلان ، وبالنتيجة يمكن أن تنسب إلى أفواج المشاة .

وموازاة لهذه التحسينات المادية زاد غوستاف أدولف في طاقة وحداته على المناورة ، بإعادة تنظيمها تنظيماً خاصاً :

– فزاد عدد حاملي البنادق في فرق المشاة (في كل سرية : فصيلتان من حملة البنادق يوضعان على الجناحين ، وفصيلة من الرمّاحة في الوسط) .

– وأوجد اللواء ، وهو الجمع بين فوجين ، من (٨) الى (١٢) سرية .

– وبسّط تنظيم الخيالة ، فحوّلها الى دراغون ، والى مدرعين .

– وأوجد ، الى ذلك ، مدفعية ضخمة (حتى ٣٠٠ قطعة) يشرف عليها اخصائيون ، فكانت تحتوي قطعاً ثقيلة ومدافع على الطريقة السويدية .

وبعد أن هيأ جيشاً متفوقاً بصفاته الخاصة ، كما هو متفوق بتنظيمه وتسليحه ، تمكن غوستاف أدولف من تطبيق استراتيجية ديناميكية واضحة . فكان ، على النقيض من أعدائه ، يسعى الى المعركة لأنه هو أمين من كسبها . ولقد سيطر على أعدائه بوسائله الفنية (سير سريع على نطاق واسع ، تنظيم واهتمام بخطوط المواصلات ، مع قواعد للعمليات نحو الرين والبلطيق) .

وفي حقل التكتيك يمكن أن يتميز مذهب غوستاف أدولف بالعوامل الثلاثة التالية :

– أستعمال المناورة .
– أهمية النار .
– عمل حاسم تقوم به الخيالة .

وأصبح بإمكان ملك السويد أن يناور بعد أن خفف وحداته . ففي ليبزيغ تدخل بخطوطه الثانية وباحتياطه ، وكسب معركة « لوتزان » بعمل خيالته على الجناحين بعد نجاح جزئي في القلب نتج عن هجوم قامت به المقدمة .

وكانت المدفعية والمشاة تؤمنان إطلاق النار. وفي بعض الأحيان كان المشاة يوزّعون بين الخيالة التي كانت السلاح الحاسم ، بالفعل ، إذ كان رجالها يقومون بهجوم بالسلاح الأبيض بعد إطلاق النار من الصف الأول فقط .

وفي الحقيقة ان غوستاف أدولف كان لا يزال يتبع الطريقة المعروفة في عصره لتنظيم المعركة ، أي وضع المدفعية في مقدمة الجبهة والمشاة في القلب ، والخيالة على الجناحين . ولكن تشكيلاته كانت أقل عمقاً : فباقتصاده في العمق (ثلاثة صفوف فقط بوجه عام) كان يربح في عرض الجبهة . زد على ذلك انه كان يحترز بالاحتياط ، وقد يكون في هذا أحد العناصر الأساسية لتفوقه على أعدائه .

وبالاختصار ، كان غوستاف أدولف يملك سنة ١٦٣٠ مذهباً وتنظيماً عسكريين متقدمين جداً بالنسبة لعصره ، وكان يعرف كيف يجمع بفعالية بين النار والحركة إذا ما جوبه بجيوش ثقيلة. لقد كان مجدداً. والواقع أن نهاية القرن السابع عشر ، كانت في حقل الحرب ، عصر تقليد لنظريات وأساليب ملك السويد .

●

إن تطور الأنظمة السياسية الفرنسية ، في القرن السابع عشر ، كان بالطبع مؤاتياً جداً لتطبيق أفكار غوستاف أدولف . لقد رأت فرنسا حينذاك قيام الملكية المطلقة ، فإنشاء جيش وطني ملكي ، شبيه بجيش السويد ، يكون النتيجة

المنطقية لهذا السير نحو النظام والوحدة ، الذي تابعه ريشيليو ومازاران . غير أن الصعوبات المالية وحدها جعلت الاصلاحات محدودة في هذا الحقل .

ولقد ظهر عمل ريشيليو في المركزية ، أولاً ، بخلقه نظارة الحربية التي عهد بها الى سوبليه دي نوايّه وكان الكاردينال يراقبها مراقبة دقيقة . وفي سنة ١٦٢٧ ألغيت رتبة القائد الأعلى للجيش (Connétable) الذي كانت سلطته تطغى بعض الشيء على سلطة الوزير الأول . وتعويضاً عن ذلك صدرت مذكرة سنة ١٦٢٩ بتحديد المبادىء الإدارية في ما يتعلق بتسديد الأجور وإدارة تموين الجيش . وجاء ميشال لوتليّه ، خليفة لسوبليه دي نوايّه ، فأوكل حقوق المراقبة التامة إلى القيمين ، ثم الى المفوضين ، والمراقبين ، وحدد تسلسل الرتب العسكرية ، وقلل من امتيازات ضباط المشاة والخيالة والمرتزقة ، وأنشأ نظاماً للترقية . ولكنه لم يستطع أن يلغي بيع الرتب الصغيرة . وكذلك لم يتمكن من التغلب على صعوبات التجنيد الذي كان يعتمد على تطويع اختياري، نظرياً، أو على جمع جنود أجانب (مثلاً: شراء جيش برنار دي ساكس—ويمار بكامله).

فالجيش الذي كان يعتمد في تعبئته على الأشراف يجند فرقه في بيئة عادية . فقد بلغ عدده في سنة ١٦٤٠ (١٦٠٠٠٠) رجل ، منهم (١٠٠٠٠٠) من الفرنسيين . وعلى غرار جيش غوستاف ادولف أخذ يزيد شيئاً فشيئاً في نسبة المشاة،وفي نهاية عهد لويس الثالث عشر كان هنالك تسعة وعشرون فوجاً دائماً، وفي سنة ١٦٥٩ رفع مازاران هذا العدد الى(٤٤) فوجاً، كانت مؤلفة تكتيكياً من كتائب (٨٠٠ رجل) ، وإدارياً من سرايا . وتبنى ريشيليو نظام الألوية ، وكان اللواء يجمع بين (٤) و (٦) أفواج في المعركة . وأعطي الجندي الراجل بندقية . وابتداء من سنة ١٦٤٣ أصبح عدد حاملي البنادق في الجيش يبلغ ثلاثة أضعاف عدد المسلحين بالرماح .

وتشكلت الخيالة من أفواج ، والفوج من كتائب، كل كتيبة منها تضم (٢٠٠) فارس . وكان أفرادها مسلحين بسلاح ناري ، وكانت تضم الدرك ، والخيالة الخفيفة ، والدراغون ، والهوسّار .

أما المدفعية فقد طبقوا فيها سنة ١٦٣١ استعمال مدفع المشاة ، على طريقة غوستاف أدولف وأصبح الجيش الفرنسي، أسوة بجيش السويد ، يملك مدفعية مشاة (قطعتان من أصل أربعة أدخلتا إلى فوج المشاة)، أما المدفعية بحصر المعنى فقد سُميت « مدفعية الاحتياط » ، وكانت تنقلها مؤسسات مدنية ، ويشرف عليها في المعركة جنود راجلون يقودهم ضباط أخصائيون .

وشاء حسن طالع (لوفوا) أن يتسلّم نظارة الحربية طوال خمس وعشرين سنة ، فأكمل عمل « زيشليو» و«مازاران» . وكان الاقتصاد مزدهراً ، فتمكن من تأسيس جيش ملكي دائم ، محققاً بذلك أحلام أسلافه . ولكن هذا الجيش لم يكن في وقت من الأوقات وطنياً بكامله من جراء العدد الضخم الذي وصل اليه (٤٥٠،٠٠٠ رجل في سنة ١٦٩١) ، بيد أن عدد المرتزقة كان أقل من الماضي. وكان هؤلاء ينخرطون في الجيش الدائم الذي بقي عدده يتغير وفقاً للظروف (٧٠،٠٠٠ رجل في سنة ١٦٦٨ و ١٦٠،٠٠٠ رجل في سنة ١٦٨٤) ، إلا أن نوعية التعبئة كانت قد تحسنت تحسناً ملموساً ، وذلك بمقدار ما كان الملك يرغب في فرض النظام ، أو بسبب التقدير الذي خُصّ به الجنود ، في ذلك العصر الكبير ، لانتصاراتهم المتعددة في المعارك الأوروبية .

وكان لعمل « لوفوا » ، في حقل التنظيم ، نتائج ممتازة :

– وضع نظاماً أكثر صرامة من الأنظمة السابقة لتسلسل الرتب العسكرية وشروط الترقي . وألغى رتبة الكولونيل جنرال في المشاة إلغاء نهائياً ، لأنه صار شديد السطوة ، وأبقى على رتبة الكولونيل جنرال في الخيالة ، ولكنه قلّل من سلطته بخلقه رتبة كولونيل جنرال في الدراغون . وفضلاً عن ذلك أوجد المفتشين العامين (المشاة ، والخيالة ، والمدفعية ، والهندسة) الذين كانوا مسؤولين أمامه شخصياً .

وأبقى كذلك على رتبة لواء (بريغاديه) ليحد من سلطة الكولونيل . وأُوجدت رتبة الليوتنان كولونيل والماجور ، وكان الملك يمنحها مجاناً، ونظّم

بيع الوظائف تنظيماً دقيقاً .

— وكانت الادارة موضع مراقبة دقيقة من قبل مفوضي الحرب .

— وأخيراً أوجد « لوفوا » أركان الحرب «المكلف بوضع خطة ثابتة لخدمة الجيوش العامة في أثناء الحرب ، وخصوصاً تنظيم أقسام العسكرة ، والمؤن ، والأسواق » .

— وتنظّم التجنيد ، وأصبحت شروط التطوع (السن ، واللياقة الجسدية ، ومدة الخدمة) واضحة كل الوضوح . وفي سبيل تجنب تجنيد المرتزقة تنظمت الميليشيا الاقليمية التي أصبحت تضم منذ سنة ١٦٨٨ (٢٥٠٠٠) رجل (ثلاثون فوجاً) كانوا يتدربون في ايام الآحاد . وكان أفراد هذه الميليشيا الذين يتطوعون في وقت الحرب قد بلغ عددهم (٢٥٠،٠٠٠) في حرب وراثة عرش إسبانيا .

— وقد خضع تأليف مختلف القطع المحاربة ، تحت قيادة « لوفوا » ، إلى التغييرات التالية :

— زيادة عدد فرق المشاة ، وقد اختفى فيها حاملو الرماح ، بعد أن تبنوا استعمال الحربة .

— تطوير الخيالة الخفيفة على حساب الخيالة الثقيلة التي لم تعد سلاحاً للمصادمة . أما الدراغون فقد اعتُبروا كمشاة يمتلون ظهور الخيل .

— اختفت المدفعية شيئاً فشيئاً من أفواج المشاة ، ولكن « مدفعية الاحتياط » تطورت وهدفت إلى أن تصبح سلاحاً حقيقياً بالقائمين عليها . وفي النصف الثاني من القرن أوجد « فوج رماة الملك » و« القاصفة الملكية » . وفي سنة ١٦٩٣ بلغ عدد جنود هذه المدفعية (٥٠٠٠) رجل ، ولكن معداتها الثقيلة جداً كانت تستعمل خصوصاً في الحصار .

— ولم يكن سلاح الهندسة معروفاً حينذاك كسلاح منفصل ، ولكنه كان يضم فرقة من (٦٠٠) مهندس عسكري .

— كان عدد الألمان قليلاً في الفرق الأجنبية ، وكانت الأفواج السويسرية

تشكل أغلبية الوحدات غير الفرنسية .

بعد هذه التعديلات أخذ جيش لويس الرابع عشر يسير من تقدم إلى تقدم، من حيث استعداداته التقنية، ووحدته المعنوية، وإخلاصه للملك، وقد حل هذا المفهوم محل مثالية الفارس القديمة . وكانت فرق الميليشيا تثبت مقدرتها الفائقة في ساحات معارك نهاية هذا العصر . وهذا الجيش الذي نظمه « لوفوا » تنظيماً تقنياً هو أيضاً ثمرة عمل لويس الرابع عشر منذ أن تولى الحكم . وكان يقوده غالباً بنفسه، وعندما لم يكن يمارس ذلك، كان « لوفوا » بالواقع يدير قادته . والواقع أن القرارات الهامة كانت تتخذ بالدرجة الأخيرة، في مجلس شورى الملك حيث كان مقر ناظر الحربية .

وكانت العمليات الحربية، تحت حكم لويس الرابع عشر، تتخذ – عملياً – مظاهر مختلفة . ونستطيع أن نميز فيها حالات حصار كانت تتم غالباً بتأثير من الملك الذي كان يأبى، بحضور رجال البلاط، إلا أن يحرز نجاحاً أكيداً، لذلك لم يكن يدخر وسعاً في نصح مرؤوسيه بالتروي . والواقع أنه بسبب النقص في وسائل المدفعية كانت الحصون، في الأعم الأغلب، هي الوسيلة الوحيدة الفعالة للدفاع عن منطقة تشكل نقطة مرور .

وقد رأى القرن السابع عشر، مقابل ذلك، أمثلة بديعة من حرب الحركة، خاصة مع تورين الذي تمتع بالنسبة إلى الحكومة بنوع من الاستقلال لم يعرفه خلفاؤه من بعده . إلا أن قواد الجيوش، بشكل عام، كانوا يفضلون المواربة لأسباب تعود إلى الناحية السيكولوجية (وصاية لوفوا)، وإلى ثقل الجيوش الذي كان يشل كل حركة في المعركة، إذ كانوا يحشدون جيوشاً قد يزيد عددها عن الستين ألفاً . وكان كونديه وتورين، الجنرالان في فرقة الهندسة، والأمير أوجين ومالبوروغ من الأعداء، هم وحدهم الذين يتعمدون المعركة . وعلى النقيض من ذلك، فقد كان شعار القادة المرتبكين بجنودهم في نهاية هذا العصر هو التالي: « لا تقم بأية حركة » .

إن أعمال الحصار الكثيرة ، التي قامت بها جيوش لويس الرابع عشر ، كان يقودها أعظم مهندس عسكري في التاريخ ، هو « فوبان » ، الذي احتل أكثر من خمسين قلعة. لقد كان يستعمل الكرة المجوفة في حشو المدافع لتمهيد الأرض، واخترع الرمي النابي ليؤثر على أقسام الحصون ، وعلى زوايا الأقسام البارزة . ولكي يحمي فرق الحصار نادى بإقامة الأسوار الأرضية ، « خيالة الخنادق » و« الخنادق الموازية » التي كانت خطوطها تقترب تدريجياً من الأسوار . وفضلاً عن ذلك ، فهو الذي حصّن الحدود الفرنسية تحصيناً قوياً ، خاصة في الشمال والشرق والسواحل البحرية ، وجبال الألب . ورمّم ثلاثمائة حصن قديم ، وبنى أربعين حصناً جديداً وجهّزها بمدافع من عيار كبير . وعوضاً عن الجدران العالية نادى بإقامة تحصينات أرضية مغطاة بالتراب . وأوجد الحصون المنعزلة التي لها ميزة توزيع الدفاع على أوسع مدى ممكن من الأرض . وأخيراً كان قد كوّن فكرة عن الرمي المتقاطع .

أما في حقول التكتيك الاخرى ، فيمكننا أن نشير إلى تقنية السير نحو العدو، الذي كان يتم وفقاً لخطط مرسوم بدقة يقضي بأن يسير عدد من الأرتال، ما بين ثلاثة وعشرة ، في جبهة واحدة (مشاة وأمتعة) على طريق في الوسط. وفي الأمام تسير أرتال مؤلفة من مفارز خفيفة (كشافون ومخبرون) ، ومرممون مكلفون بجعل الطرقات صالحة للسير .

وقد اخترع تورين طريقة تسمح بالانتقال بسهولة من ترتيب القتال على صفين إلى تشكيل سير عبر أية أرض كانت : تبدأ المدفعية سيرها على طريق ما ، بينما يبدّل نصف المشاة في كل صف أماكنهم ، وتشكل الخيالة الرتلين الخارجيين ، بحيث أن المجموع إذا ما نُظر إليه من الأمام يبدو على الشكل التالي : رتل من الخيالة ، ، رتل من المشاة ، رتل من الأمتعة ، رتل من المشاة ، رتل من الخيالة.

وللانتقال من نظام السير إلى جبهة المعركة اعتُمدت وسائل معكوسة . ولكن هذه العمليات جميعها كانت بطيئة جداً : فالجيش المؤلف من (٨٠٫٠٠٠

رجل) يخسر يومين كاملين لتنظيم صفوفه على جبهة طولها أكثر من ثمانية كيلو مترات . وقد يكون هذا البطء هو الذي يشرح سبب تردد قواد ذلك العصر في التفتيش عن شن المعركة ، وذلك لصعوبة إعدادها .

والواقع أن ترتيب المعركة على الشكل الذي ذكرنا ، مع وضع المشاة في القلب ، لم يكن يعد إجبارياً لأجل القتال ، وبامكان عبقرية القائد تعديل التنظيم وجعله موافقاً للظروف المحلية ، ولتشكيلات العدو . ففي معركة نيروندان (١٦٩٣) مثلاً ، وضع الخيالة في القلب والمشاة على الجناحين .

وبوجه عام رأى القسم الثاني من العصر خط المعركة يتسع شيئاً فشيئاً على حساب العرض . وفي هذه الشروط أصبح من المتعذر على القائد العام أن يحيط بمجموع المعركة ، وأن يقودها بنفسه بكاملها ، فكان يعهد بقيادة قسم منها الى ليوتنان جنرال ويحتفظ لنفسه بادارة العمليات على بقية الجبهة .

ومن نتائج تأثير النار كذلك تحصين الحملة لحماية أماكن المشاة . فبعد اختفاء الرماحة صار المشاة ينظمون في صفوف أقل عرضاً بعد تسليحهم بالحراب التي اخترعها فوبان . وكانت نتيجة هذا الاختراع « الهجمة بالحراب » . ولكن أهمية النار المتزايدة لم تؤثر مباشرة في ساحة المعركة ، ولم يكن لها النتائج التي يفترض أن تؤدي الى تغيير في تشكيلات القتال واستعمال مختلف الأسلحة . فقد بقيت عمليات الترتيب بطيئة جداً ، وحركات الهجوم كثيرة العدد (٢٤ حركة للهجوم بالبندقية) ، بحيث أن الخيالة ، مع فقدانها صفة مليكة المعارك ، بقيت تحتفظ بأهمية نسبية .

في بدء الأمر لم تكن الخيالة تستعمل على الجناحين وحسب ، بل في القلب كذلك . وشيئاً فشيئاً ، وبمقدار ما كانت تتسع الجبهات ، كانوا يكثرون من استعمالها في الأجنحة . وكانت تطلق النار قبل الهجوم كما كانت الحال في أيام غوستاف أدولف الذي لم يتمكن من إلغاء هذه العادة التي لم يكن يقرها . إلا أن تورين أمر ، بدوره ، بالهجوم والسيوف مشرعة . ولكن الخيالة بقيت

متعلقة ، بسبب التقاليد ، بإطلاق النار من على صهوات الجياد . والواقع أن تعاليم سنة ١٦٩٠ فرضت الهجوم بالسيوف ، بدون إطلاق نار ، والعدو بمعدل خمسين خطوة ، « هجوم وحشي » ، ثم هجوم منتشر ، أما الهجمة المتراصة فقد كانت تقوم بها الخيالة خبباً .

– أما المدفعية التي نظمت كسلاح مستقل ، فقد سلحوها بأعتدة أسهل استعمالاً ، وبدأت أهميتها تزداد في ساحة المعركة . وكانت تضم أعتدة للحصار ثقيلة ومربكة (قطع من عيار ٢٤ أو من عيار ١٦) ، وأعتدة للميدان . ومثالاً على ذلك نستطيع أن نذكر أن جيش الفلاندر سنة ١٦٩٠ كان يضم جبخانة تتألف من أربعين قطعة ، أربعة من عيار (٢٤) وأربعة من عيار (١٦) ، تشكل المسلحة المتحركة للحصار ، بينما ضمت مدفعية الميدان (١٢) قطعة من عيار (٨) و (٢٠) قطعة من عيار (٤) . وكانت تمون بألف طلقة لكل قطعة من قطع الحصار ، وبين (١٠٠) و (٢٠٠) طلقة لكل قطعة من قطع مدفعية الميدان .

– ويذكّر سير المعركة في نهاية هذا العصر بسير المعارك التي ذكرناها في بداية هذا الفصل . أولاً يبدأ السير تحت حماية فرق الطليعة (فرق الدراغون وأفواج رماة الرمانات) ، وفي هذه الأثناء تكون المدفعية تطلق قنابلها ، وعندما يبلغها جنود الصف الأول تندفع الى الأمام ، وحين يصل الجنود الى مرمى من جنود الأعداء يطلقون النار وهم سائرون ، وإذا ما توقفوا أو تعبوا يحل محلهم جنود الصف الثاني .

ثم تدور رحى المعركة ، على الجبهة ، في سلسلة من المعارك الفردية ، وتنتهي إما بالتخلي عن خط من خطوط الجبهة ، وإما بتدخل عمل جناح تقوم به ، عادة ، الخيالة التي تقرر في الغالب مصير المعركة بحركة دائرية . ولا مفر من القول أن المناورات الحقيقية كانت نادرة جداً بسبب ثقل الجيوش ، وبقيت هذه المناورات من مفاخر بعض القادة الكبار أمثال « تورين » و « كونديه » .

فقد صمد هذا الأخـــير ، في « سينافل » مع (٤٠٠٠٠) جندي ، في مركز دفاعي أمام هجمات (٦٠٠٠٠) جندي بقيادة أمير أورانج . وعندما انسحب الأمير في النهاية ، قـام « تورين » بهجوم مفاجىء على مؤخرة جيشه ، وانتزع النصر للفرنسيين .

•

والخلاصة أنـه إذا كان بدا ، في أوائل القرن السابع عشر ، أن غوستاف أدولف متقدم على عصره ، سواء بتنظم جيشه المدرب المتحد ، أم بأساليبه في القتال ، فإن معاصريه لم يعتنقوا أفكاره بكاملها . والواقع أنه حتى نهـاية هذا القرن لم تكن الأهمية المتزايدة لعامل إطلاق النار قـد أعطت للمشاة في فرنسا دور مليكة المعارك ، هذا الدور الذي كان يجب أن تلعبه منذ ذلك الوقت . وبقيت الخيالة — وهي تفقد من تفوقها — تتمتع بأهمية نسبية في المعركة ، وهي التي كانت ، في الغالب ، تقرر المصير بعملية جنـــاح . وفضلاً عن ذلك ، فقد بقيت عملية ترتيب الجنود ، قبل المعركة ، وفي أثنائهـــا ، بطيئة ومفرطة في الدقة ، مما يذكرنا بالتشكيلات القديمة العهد التي كانوا قد استلهموها .

ونستطيع القول إن التقدم الذي ينبغي أن يسجل ، والذي حدث في خلال هـذا العصر ، إنمـا هو التنظيم العام للجيوش . فقد أصبح الجيش الفرنسي ، بنوع خاص ، نظامياً ، وملكيـــاً ، ووطنياً في أغلبيته الساحقة . وأصبح يؤلف - كما كان جيش « غوستاف أدولف » فيما مضى - أداة قوية بـين يدي ملكية متسلطة قوية . غير أن هذه النتيجة كانت ثمرة تطور سياسي في البـلاد أكثر مما كانت نتيجة منطقية لتحسين الفنون العسكرية في ذلك العصر الذي لم يعرفوا فيه حقيقة أن يستخرجوا من أهمية النـــار ، المعروفة مع ذلك ، نتائجها النهائية .

٣

القرن الثامن عشر
من فردريك الثاني الى المفكرين العسكريين الفرنسيين المبشرين بالمعركة الحديثة

في مطلع القرن الثالث عشر اختفى الرمح ، وحلت محله الحربة في سنة ١٧٠٣ ، وأفسحت الموسكيه المجال أمام البندقية الحجرية . إلا أن سرعة إطلاق النار لم تكن تتعدى ، بعد ، الطلقة الواحدة في الدقيقة . وإذا كان عدد الصفوف –كما رأينا– قد تحول الى ثلاثة فقط ، فإن الخيالة قد احتفظت بأهميتها الأكيدة ، وبقيت التشكيلات المرصوصة ، والتطورات البطيئة ، التي حصلت في الماضي ، هي القاعدة التي تتمشى عليها الجيوش الأوروبية ، والتي جعلتها مدرسة فردريك الأول في بدء الأمر ، ثم المدرسة الفرنسية فيما بعد ، تخضع تدريجياً ، في حقل التنظيم كما في حقل التكتيك ، لتغييرات ثورية لم يعرف العصر السابق كيف يتبناها بنسبة التطوير التقني للتسلح في العصر .

●

لقد استفاد فردريك الكبير من بعض أفكار القواد في القرن السابع عشر ، وكان السيد المطلق لبلاده وجنوده ، يملك حق التصرف في جيش لقي أفضل تدريب في عصره . وشاء حسن طالعه أن يحارب ضد تحالف ينقصه التلاحم .

كان فردريك الكبير قائداً كبيراً ، ولكنه لم يكن مجدداً بحصر المعنى . « فبين معركة « لوثن » ومعركة من معارك نابليون علاقات من جهة الشكل أقل من العلاقات الموجودة بين معركة نابليون هذه والمعركة التي حدثت في حرب السنوات السبع والتي شنها أحد قادتنا ممن هم أقل من نابليون عبقرية عسكرية [١] » . وبالجملة ، لم يكن هنالك مدرسة بروسية بالمعنى المعروف ، بل شخصية وعبقرية الملك فردريك فقط . ولما قضى الملك انحدر الجيش البروسي إلى وسطية ملحوظة . وعلى النقيض من ذلك ، فالأفكار الفرنسية هي التي أعطت المفكرين العسكريين، في نظام يقاسي النزع ، ميزة لا تناقش . ومن سخرية القدر أن هذه الأفكار نفسها هي التي نشأت عليها شبيبة نابليون المجتهدة فيما بعد .

●

وفي الحقيقة ان المؤرخين الفرنسيين هم الذين عقّدوا حتى الافراط، في غالب الأحيان سير القرن الثامن عشر الذي هو، في الواقع، سليل القرن السابع عشر، وقد تميز في فرنسا بتطور مستمر . أولاً ، بالملكية المطلقة ، وقد وصلت الى عاهلين لم يعرفا ، لسوء الحظ ، كيف يمارسانها . ثم بحركة الفلاسفة والانسيكلوبيديين الذين ارتفعت أصواتهم ضد نظام مستبد لم يسعده الحظ فيتجسد بشخصية قوية . وهنالك أيضاً الإعجاب « بالملك الفيلسوف » نموذج « الطاغية الطيّب » الذي نادى به كبار مفكري العصر . والواقع أن مجرى الافكار الجديدة سمح بمتابعة الاعمال الإصلاحية التي بدأها « لوفوا » ، فتمكن « شوازيل » من مضاعفة الوحدات المقاتلة في أيام السلم ، وأمّن جيشاً دائماً ، وأنشأ « بروتيل » احتياطاً دائماً بإدخاله بعض التحسينات على نظام الميليشيا ، التي هي إرث العصر السابق .

وبوجه عام ، احتفظ عهد لويس الخامس عشر ، في القسم الأول من العصر ،

---

١ – من محاضرة لليوتنان كولونيل لستيان في المدرسة الحربية العليا (١٩٣٠) .

بالصفات الأساسية المميزة لجيش لويس الرابع عشر . وتوالت بعد ذلك سلسلة من الوزراء العظام ، أشهرهم « شوازيل » ، فباشروا ابتداء من سنة ١٧٦١ إصلاحاً عُرف باسم « شوازيل » . وفي سنة ١٧٨٨ صدرت سلسلة من الأوامر نظمت الجيش عشية الثورة الفرنسية . وكانت الأفكار الأساسية لتجديدات « شوازيل وخلفائه هي التالية :

١ً – خلق الفرقة ، وهذا هو أكبر عمل تجديدي في القرن الثامن عشر . والواقع أن اللواء بدا غير كافٍ نظراً للأعداد الضخمة التي بلغتها الجيوش الحديثة . وقد استُعملت الفرقة كتجميع وقتي في سنة ١٧٣٣ في أثناء حرب وراثة عرش بولونيا . وبعد عشر سنوات أصبحت تشكيلة نظامية تبناها ، بالضبط ، المارشال دو بروغلي وموريس دو ساكس . وفي سنة ١٧٧٦ أعطاها « شوازيل » نظامها الأول . ولكنها بقيت حتى نهاية العصر وحدة تدريبية في أيام السلم . وفي خلال المعارك الثورية أصبحت تنظيماً تكتيكياً عادياً .

٢ً – زيادة الملاك . لقد أصبح هذا الأمر ضرورياً بسبب حاجة الجيوش الدائمة ، المتزايدة القوة ، التي من أجلها جعل « شوازيل » التجنيد بواسطة الدولة . فمن (١٣٠٠٠٠) جندي سنة ١٧١٥ ارتفع عدد الجيش الفرنسي ، بالتدريج ، حتى بلغ في سنة ١٧٨٩ (١٩٠٠٠٠) جندي ، بفضل ضم الميليشيا التي هي نوع من الاحتياط الدائم ؛ بحيث أن الانتقال من حالة السلم الى حالة الحرب كان يتم بتقوية بسيطة . وكان قسم كبير من ملاكات الجيش الدائم يُجند من المدارس العديدة التي أُنشئت في هذا العصر ، والتي خرّجت ضباطاً تحلّوا بكفاءات تقنية لا غبار عليها .

وقد أمّن كل هذا لجيش لويس الخامس عشر قيمة لم يستطع أن ينتقص منها أصل القانون الذي وُضع سنة ١٧٨١ ، القاضي بأن يكون مرشحو الضباط من كثيراً نبيل . وقضي على بيع الرتب قضاء نهائياً .

٣ً – تطور الميليشيا التي بلغت مائة كتيبة سنة ١٧٢٦، والتي كانت تؤمن في

وقت الحرب نصف مجموع المجندين.

٤ً – ايجاد فرق الجنود الخفيفة في المشاة (رماة الرمانات – قناصون) ، بينما أنقص عدد الجنود الخيالة بالنسبة الى المشاة (جندي مقابل ثلاثة أو جندي مقابل أربعة) .

٥ً – إعادة تنظيم المدفعية بدمج القطعة الملكية المدينة (وهي مصلحة من مصالح المدفعية) بالمدفعية الملكية ، وإسناد خدمة مجموع المدفعية الى هذا السلاح (إلغاء مدافع المشاة) . وقد نظّم لها فاليير (Valière) طريقتها الأولى في التسلح ، إلا أن غريبوفال (Gribeauval) هو الذي جعل منها المدفعية الأولى في اوروبا ، بتسليحه إياها بمجموعة من القطع الخفيفة (خلق « البطارية » من ثمانية مدافع أو أربع قذّافات تشرف عليها سرية من المدفعيين) . وكان الجيش الفرنسي آنذاك يضم أربع قطع لكل مائة جندي .

أما هيئة ضباط الهندسة ، وكانت قد أُلحقت في وقت ما بالمدفعية ، فقد عادت سلاحاً مستقلاً .

هكذا كان الجيش الفرنسي في نهاية ملك لويس السادس عشر ، وعلى الرغم من بعض الأخطاء ، وخصوصاً الاستياء الذي كان يسببه بقاء بعض الامتيازات، فإننا نستطيع القول أنه تحسن تحسناً ملموساً بفضل شوازيل وخلفائه ، بالنسبة لما كان عليه سنة ١٧١٥ ، إذ أصبح يتميز بصفات الجيش الحديث : ضباط تخرّجوا في أغلبيتهم من مدارس كبرى ، وكان منهم القواد الكبار للتشكيلات الثورية والامبراطورية ، وجنود يرتدون زياً موحداً، ويحملون سلاحاً معيناً ، فضلاً عن أعظم مدفعية في اوروبا . وقد تميز هذا الجيش بإدارة حازمة . وإذا كانت أفكار رجاله قد تأثرت بانتقادات الفلاسفة والانسكلوبيديين ، فهو يمثل، في مجموعه على الأقل ، صفات تقنية رائعة ، ولم ينسب المفكرون اليه أي عيب في الأيام التي سبقت الثورة .

وتجاه هذا الجيش ، كان الجيش البروسي الذي بقي وقتاً طويلاً أفضل جيش في أوروبا يعيش على ذكرى أمجاده الماضية ، ولم يعد يوحي بالاحترام الذي كان قد استحقه في أيام فردريك الكبير ، ذلك أنه بعد موت قائده مُني بنقص في الموجهين والأدلاء ، في الوقت الذي اتسعت فيه في فرنسا حركة المشرعين العسكريين الذين بقوا وقتاً طويلاً يعدون بين كبار المفكرين العسكريين في العالم .

وكان الملك الكبير ، في أثناء حكمه ، قد نظم جيشه تنظيماً جديداً :

١ً – وسّع التقييد السنوي للبالغين سن الخدمة (القرعة) ، على أساس التجنيد الاقليمي ، مبقياً المثقفين في بيوتهم ، فلا يستدعيهم إلاّ في حالة الحرب. فيكون فردريك الثاني في عمله هذا قد اخترع ميكانيكية التجنيد الحديث .

٢ً – زاد في تدريب ضباطه وجنوده وحسّن الأسلحة. ومع إدخال الثقب لإشعال البارود والقضيب الطويل اللين زاد من سرعة إطلاق النار حتى ان المشاة المنظّمين وحدات ثانوية في الكتيبة ، والمدربين على المناورة، كانوا يطلقون النار بعد تلقيهم الأمر ، فصائل فصائل (صف واقف وصف راكع) .

٣ً – جدّد في مناورات الخيالة فمنعهم من إطلاق النار من على الجياد ، وعلّمهم كيف يناورون صفوفاً متراصة بسير سريع .

٤ً – خفف المدفعية وزاد من قدرتها على التحرك ، وقد أوجد خاصة المدفعية على الخيل .

ولما تهيأ لفردريك الثاني جيش بهذا التنظيم صار باستطاعته أن يطبق بنجاح عملية الجناح ، فتبنى تقنية للسير نحو العدو محكمة كل الإحكام :

– تخلى عن ترتيب جنوده « أرتالاً بالأجنحة » .

– نفّذ حركته متقدماً « أرتالاً بصفوف » .

وهكذا ، صارت تسمح له حركة استدارة بسيطة إلى اليمين أو إلى اليسار بمباشرة المعركة على صفين ، ومن حيث المبدأ وجه مقابل جناح العدو .

●

بعد إصلاحات فردريك الكبير هذه ، وإصلاحات شوازيل وخلفائه ، ومع الأخذ بعين الاعتبار بأفكار ملك بروسيا وآراء كبار المفكرين العسكريين الفرنسيين ، ما هي التطورات التي طرأت على الفنون التكتيكية في خلال القسم الثاني من القرن الثامن عشر ؟

ففي هذا الحقل – كما سبق وقلنا – حقق التقدم ، فضلاً عن فردريك الكبير ، مجموعة من القادة والكتاب ألفوا « مدرسة فرنسية » حقيقية . ولا يسعنا إلا أن نذكر قبل الجميع المارشال « دو بروغلي » Brogli الذي برز في سوندرهوزن ، وفي برجان ، وفي كورباخ ، وفي غرنبورغ ، وفي كاسيل . ولكي نبرز المفاهيم الحديثة لدى هذا القائد الكبير الذي كان يأمر جيشاً عادياً جداً نذكر مثلاً نأخذه من كتاب[1] لـ « غيبير » :

«في نهاية حملة سنة ١٧٦١ رأى المارشال دو بروغلي نفسه مجبراً على تقسيم جنوده إلى ست أو ثماني قطع ، لتأمين معيشة أفضل لهم والإبقاء على قوة مقاومتهم . وأمر فعسكرت كل قطعة على بعد عدة فراسخ عن القطعة الثانية . وشاء الأمير فردينان ... أن يغتنم الفرصة ليباغته ... فسار نحو إينبك حيث كان المارشال قد أقام قيادته العامة ، مع أربعة ألوية من المشاة وبعض الخيالة . ولم يعلم المارشال بالأمر إلا في مساء ٤ منه . فأصدر في الحال أمراً إلى جميع قطعه المنفصلة عنه بالانضمام إليه . وفي صباح اليوم الثاني امتطى جواده واختار موقعاً أمام إينبك ، وركّز فيه الجنود القلائل الذين كانوا معه . وكانت مقدمة العدو بدأت تظهر ، فأرسل مفرزة كبيرة لملاقاتها ، فأوقفتها ، وكبحت جماحها ، وأجبرتها على التقدم بحذر . ومضى الوقت ، وكان النهار ينقضي وجنودنا يصلون تباعاً ويجهزون الموقع المستطلع . ودقت الساعة الثالثة بعد الظهر ولم يكن الأمير فرديناند قد تمكن بعد من البدء بترتيب جنوده وإعدادهم للمعركة : لقد كان يريد أن يباغت ، ولكنه عوضاً عن ذلك وجد نفسه أمام وضعية مخيفة ... وفي الليل سلك

١ – الدفاع عن طريقة الحرب الحديثة ، نيوشاتل ، ١٧٧٩ .

طريق هملن بعد أن مُني مشروعه بالفشل .

« فما كان هذا الموقع الذي اختاره المارشال دو بروغلي بمهارة فائقة ؟ كان يبعد فرسخاً ونصف الفرسخ عن نقطة الانتشار ، وإن لم يكن عددنا يبلغ أربعين الف مقاتل لنحتله ؛ لقد كان موقعاً يقسمه وادٍ إلى قسمين بحيث أن الجيش كان مقسوماً ، في الواقع ، إلى قطعتين ... ولم يكن باستطاعة العدو أن يدخل في هذا القمع الذي كانت خيالتنا تشكل وراءه حائطاً قوياً بين حيطين ، بينما كان فرعا الموقع المرتكزان على الأعالي يشكلان الحصون ... »

وإننا إذ نستشهد بهذه المعركة فلكي نظهر أن مارشالاً فرنسياً تمكن في سنة ١٧٦١ من توزيع جنوده توزيعاً فطناً ليضمن مقاومتهم أمام خطر محدق بهم ، ومن جمعهم في ساحة المعركة وراء مفرزة ناوشت العدو أمامهم لتؤخر تقدمه ، ومن جعلهم يحتلون ، بنوع خاص ، موقعاً مختاراً بدقة . ففي كل هذا ، بدون شك ، صورة سابقة للمناورة الحديثة .

ويقول الليوتنان كولونيل « ليستيان » (Lestien) الذي أورد هذا المثل ، إن مناورات المارشال دو بروغلي كانت أقل لباقة من مناورات فردريك الثاني في لوتن ، ولكنها كانت أكثر مرونة منها ، ولا سيما أنها أكثر قرباً من وسائل التكتيك الحربية في عهد الثورة الفرنسية وفي عهد الامبراطورية . ونكرر مرة ثانية أن القادة الفرنسيين جددوا في هذا الحقل أكثر مما فعل فردريك الثاني . وقد اتسمت نهاية القرن الثامن عشر بنشاط فكري كبير قام به مفكرونا العسكريون . والمذكرات والبحوث التي تعود إلى ذلك العصر عديدة جداً ، وهي تبحث في تنظيم الجيوش كما تبحث في الوسائل الستراتيجية أو التكتيكية ، ومما يدهش القارىء ، بلا ريب ، أن يجد فيها مفاهيم هي منسوبة ، بوجه عام ، إلى عصور حديثة جداً .

ومن بين هذه الكتابات يمكننا أن نختار كتاب «محاولة عامة في التكتيك» ، المطبوع في لندن سنة ١٧٧٢ ، بدون اسم المؤلف الذي هو الفارس الشاب غيبير ،

وكان إذ ذاك في التاسعة والعشرين من عمره. إن هذا المؤلف ذا المظهر الفلسفي، والسياسي، والعسكري، هو عمل خلاق بدون شك. ففي القسم التقني منه ينتقد المؤلف التدريب العسكري كما كان يجري في ذلك العصر: «إنه يدور حول التدرّب على استعمال بعض الأسلحة، وعلى القيام ببعض المناورات، أكثرها معقد وغير نافع في الحرب. فلنترك هذه الدوامة القديمة، ولنعتنق طريقة التربية العسكرية». وفي حقل الأسلحة المختلفة كان غيبير أول من اقترح رتل السرية، الذي بقي طوال عصر كامل أحد التشكيلات الأساسية في المشاة.

أما تعاليمه في ما يختص بالتسليح، وباستخدام الخيالة ووسائلها في ساحة القتال، فتتضمن نظريات حديثة؛ وأما في ما يتعلق بالمدفعية، وإن كان قد أخطأ إذ وجدها كثيرة العدد، فله الفضل على كل حال في أنه نصح بتركيز النار، الأمر الذي لم يتحقق إلا بعد مائة وخمسين سنة، في خلال الحرب العالمية الأولى.

ويقدم لنا غيبير في حقل التكتيك العام:
- نظرية الطليعة المكلفة بتغطية سير الجيش، وتمكين القائد من اتخاذ ترتيبات المعركة عن علم وخبرة.
- طريقة الدفاع على أساس المناورة.
- دراسة عن الدور الذي تلعبه الحصون.

وفضلاً عن ذلك، فقد أوجد المؤلف الشاب، في حقل التعليم، برنامجاً لمناورات الوحدات الكبرى، وأعطى تعليمات لتنشئة ضباط الأركان.

وأصبح مؤلّف غيبير كتاب صلاة لكل قائد، وقدّره فردريك الثاني ونابليون حق قدره. وكان نابليون يحمله معه في حروبه، وقد قال فيه: «مؤلّف يصلح لتنشئة كبار القادة». لقد أوحى المؤلف بنظام سنة ١٧٧٨ المتعلق بالخدمة في الميدان؛ ثم انه لما عُيّن أميناً عاماً للمجلس الحربي حقق أفكاره في نهاية عهد الملكية.

بيد أن كتاباً عسكريين آخرين أوجدوا طرقاً جديدة في مجرى هذا العصر، ولاسيما بعد انتصارات فردريك التي استرعت الانتباه وكان على القائد أن يختار من بين هذه الطرق الوصفة التي لا تخطىء، والتي هي عادة مرتكزة على قاعدة هندسية : نظرية الأعداد، والأرتال [1]، والانتشار في الوسط أو على الجناح، ونقاش حول الترتيب الدقيق والترتيب العميق .. ومما لا ريب فيه أن في هذه المذاهب كثيراً من الخدع ثارت ضدها، برد فعل، المدرسة البروسية في بداية القرن التاسع عشر. إلا أنها أعطت، على الأقل، نتائج حسنة في بعض الاختبارات العملية (خاصة في معسكر فوسيه سنة ١٧٧٨)، وأدخلت في الأنظمة والعادات بعض التدابير، مثلاً ما يتعلق بالتحرك (استعمال الرتل)، وفي ما يتعلق بالمعركة (الانتشار في الصف). وبقيت هذه التعليمات صالحة في حروب الثورة الفرنسية وحروب الامبراطورية.

وبوجه عام، كان القادة الفرنسيون قد اقتنعوا بأهمية عامل النار، كما كان قد اقتنع به فردريك الثاني؛ وبعد الاصلاحات التي أدخلها فاليير وغريبوفال في الجيش وُجّه النظر الى المدفعية، ولكن الإصلاح الذي خُصّت به لم يكن كافياً على كل حال.

وكان العرض، بالنسبة المشاة، يقوم على تشكيلات مخففة بالمزج، فضلاً عن أن أهمية النار أعادت المناوشين الذين نصح بهم المارشال دو ساكس. وأوجد المارشال دو بروغلي، في سنة ١٧٦٠، سرية من القناصة في كل فوج « لتتوزع طوال الجبهة وتطلق النار اختيارياً إطلاقاً محكماً ثم تنسحب، بالتدريج، الى

١ – من بين هذه النظريات يجدر بنا ذكر نظرية « رتل الهجوم » التي أوجدها الفارس «فولار»، فقد اقترح في سنة ١٧٣٢ تشكيلاً أخذه عن الكتيبة الاغريقية، يتألف من كتيبتين الى ست كتائب، تنتظم في ستة عشر خطاً وستة وثلاثين صفاً، مدعياً – بصفته من أنصار المصادمة – أن كتلة كثيفة تنتهي دائماً الى خرق خط ما. وبعد تطور الأسلحة النارية لم تعد هذه النظرية صالحة في القرن الثامن عشر، فضلاً عن أن هذا الرتل لم يؤلف أبداً. إلا أنه من المفيد أن نشير اليه لما أثارته هذه النظرية من نقاش ومن مجادلات كتابية في ذلك العصر.

ما وراء الفوج » . وفي سنة ١٧٨٨ كان في الجيش الفرنسي اثنا عشر فوجاً من القناصين : هم ، بالفعل ، الصورة المجسّدة « للمناوشين بزمرٍ كبيرة » . وهنا كذلك سيفيد التكتيك الثوري من نظريات القرن الثامن عشر بقدر ما يفيد من هوس الجمهوريين .

والواقع ان مبادىء الحيطة والانتشار تقدمت تقدماً ملموساً. وبسبب تأثير النار زادت المسافات بين الجيوش ، سواء في التوقف أم في السير ، وأصبحت مفارز المقدمة (أو المؤخرة) تستطيع بفضل تسليحها الحديث ، أن تقوم بعمل يؤخر العدو ، كما يظهر لنا المثل الذي تقدم ذكره عن المناورة التي قام بها المارشال دو بروغلي ليؤخر تقدم عدوه .

ولكن وجه المعركة نفسها سيتغير ، وسيصبح أكثر فناً ، بسبب الإمكانات الجديدة للمناورة التي سمحت بحدوث تطورات في نهاية العصر . ولما تم وضع فن نشر الجيوش وجمعها صار القادة يفتشون بإرادتهم عن المعركة ، هذا الأمر الذي نصح موريس دو ساكس في كتابه « أحلام » الموضوع سنة ١٧٣٢ بضرورة تجنبه في الوقت الحاضر . كم هو عظيم التقدم الذي أحرز في خلال خمسين سنة ! ففي نهاية القرن كانت نظرية الحرب الهجومية الواضحة تسيطر على معظم العقول ، وذلك بفضل إمكانات المدفعية الجديدة . وفي سنة ١٧٧٨ نصح الشيفاليه جان دو تيل في مؤلفه العلمي الصغير « استعمال المدفعية الجديدة في المعركة » بالهجوم ، أو على الأقل بالروح الهجومي ، حتى في الدفاع عن الحصون . ويعالج الكتاب نفسه العلاقة بين الأسلحة واستعمال البطاريات السريعة في المدفعية الخفيفة .

وبالجملة ، فقد تحقق تقدم ملموس ، لا سيما في القسم الثاني من القرن الثامن عشر . وأمّن الانتقال بين العصر السابق والأفكار التي اقتُبست عشية الثورة الفرنسية قواد أمثال موريس دو ساكس. وفي كتابه « أحلام » تنبأ هذا القائد منذ سنة ١٧٣٢ باصلاحات هامة :

– الخدمة العسكرية : « أليس من الأفضل وضع نظام يجبر كل رجل ، مهما

كانت ظروفه ، على خدمة أميره ووطنه طوال خمس سنوات ؟ » .

– معنى المناورة الذي اكتشفه لدى الرومانيين ، والذي فهمه العصر السابق فهماً سيئاً . إن موريس دو ساكس ، على العكس ، يذكّر ببوليب : « ليس بشكل الجيش ، ولا بطريقة الترتيب ، انتصر هانيبعل ، بل بالحيلة والمهارة » .

– وفي حقل التنظيم والإدارة طالب بزي معقول ، « وطريقة اطعام » ، يؤمنها أحد ملتزمي مؤونة العسكر .

– أما في ما يتعلق بالتشكيلات ، قبل المعركة وبعدها ، فقد نادى بوجوب تشكيل أرتال أقل ثقلاً ، مذكراً بالنجاح الذي أحرزته مجموعات صغيرة شُكّلت على الطريقة الرومانية ضد الكتيبة الاغريقية الثقيلة . وأخيراً قطع المارشال كل علاقة له بالترتيبات الهندسية ، والموحدة الأشكال التي كانت سائدة في عصره ، ووضع قواعد تتفق مع طبيعة أرض المعركة : حرب الجبال ، حرب الحصون ، وحرب جميع المناسبات . وأوصى بتجاوز كل طريقة ، والتأقلم مع الظروف المحلية التي تفرضها المناسبة .

وبالمقابل بقي موريس دو ساكس رجل القرن السابع عشر في الأعمال التي حققها . ولكنه استمر في معارضة التفتيش عن المعركة إلا في بعض الظروف المناسبة حقاً . وهو إلى ذلك لم يستطع أن يدرك إدراكاً تاماً أهمية عامل النار .

إن المفكرين العسكريين في نهاية العصر ، ولا سيا غيبير ، أعادوا إلى التكتيك كل ديناميكيته ، وعظّموا المعركة . كان عندهم حقيقة حدس عن المعركة الحديثة ، وقد عرفوا كيف يستخرجون من استعمال المشاة النتائج الأساسية الممكنة للقوة الجديدة التي هي النار . ولكنهم ، والحق يقال ، لم يتوصلوا إلى استنتاجات كافية في ما يختص بالمدفعية ، وكان يجب أن يريدوها أكثر عدداً : وما عدا غيبير ، لم يستطيعوا أن يروا ما سوف يحدثه في المستقبل تجمع هذا السلاح واستعماله بالجملة . غير أن هذا ليس سوى عيب طفيف إلى جانب استحقاقات هذا العصر المخصب بالأفكار ، والذي تمكن ، حتى في أقل الفروع

قيمة ، من أن ينشىء أكبر مدفعيين في الامبراطورية ، وأعني بهما : سينارمون ودروو . وقد أوجد قواد هذا العصر الفرقة التي لم يبق للثورة الفرنسية إلا أن تحسنها . وأخيراً أنشأ القرن الثامن عشر هيئة أركان عامة ضخمة جمعت نخبة من الضباط أشرف على تدريبهم الليوتنان جنرال بورسيه الذي كلفه شوازيل بهذه المهمة الدقيقة . وكانت دروس هذا القائد تستمر ثلاث سنوات ، مع مباراة في النهاية . وكانت لا تقل شأناً عن الدروس التي يتلقاها طلاب المدارس الحربية الحديثة ، حتى استعمال الحالات المحسوسة تحت عنوان « حملة وهمية » . وقد الغيت هذه المدرسة لأسباب مالية سنة ١٧٧١ . أما هيئة الأركان العامة التي اعيد تأسيسها سنة ١٧٨٣ فقد أنشأت غوفيون ، ومينو ، وبرتيه ، القائد الكبير لهيئة أركان حرب نابليون فيما بعد .

إن القرن الثامن عشر ، المجهول في الغالب من المؤرخين العسكريين ، يبدو في النهاية عصراً غنياً بالمذاهب ، مثمراً بالاصلاحات ، موجهاً كل التوجيه نحو المعركة الحديثة . ومما لا يقبل الجدل أن نابليون ، وقد عظم لاتصاله بهؤلاء المفكرين ، والناقدين ، والمصلحين ، فهو مدين لهم بأول تطوير في عبقريته .

٤

تطور الأفكار خلال
الثورة الفرنسية والامبراطورية

لقد قيل كلام كثير في الستراتيجية والتكتيك الثوريين، غير أن المشاة بقيت حتى عصر تجديد الملكية ، تتبع عمليـاً ، نظام سنة ١٧٩١ . وكانت هذه هي حال جميع القطع المسلحة الباقية .

ومع ذلك ، لا يلبث الوجه العام للعمليات الحربية أن يتغير شيئـاً فشيئاً ، ولا يُعزى ذلك إلى الحماسة الثورية ، وقد كانت أقل مما يريدون أن يصفوها ، بل على الأرجح إلى ضعف جيوشنا الجمهورية الاولى ، مما اقتضى اتخـاذ موقف جديد كان ثمرة اختيار دُقيق بين الأنظمة المرعية الاجراء . والواقع أن غياب ما يقرب من (١٢٠٠) ضابط من المشاة والخيالة في المهجر كان له تأثيره الكبير ، فكان تدريب الجنود الجدد ، والخطر محيق بالبـلاد ، يتم وفقاً لنسق سريع ، مع إلغاء جميع التطورات المعقدة . وكان المدرّبون القلائـــل في ذلك العصر يسيرون في عملهم بسرعة فائقة ، فلا يعلـمون سوى طريقة تشكيل الصفوف واستخدام المناوشين زمراً زمراً ، هذه الطريقة التي نودي بها في القرن الثامن عشر ، ولم يكونوا يطلبون سوى حدٍ أدنى من التدريب . ومارسوا ذلك إلى

حد الافراط ، وقد أحرز هؤلاء الجنود الشباب الذين تدفعهم الحماسة ، بعض الانتصارات في أراض مستورة ، ولكنهم كانوا أضعف من أن يصمدوا ، في أرض مكشوفة ، أمام تشكيلة متينة لجيش نظامي . وما لبثوا أن عادوا بكل بساطة إلى فنون القرن الثامن عشر : المناوشون أمام الخط ، ثم الخط نفسه ، وأخيراً الاحتياط . وفي هذه الأثناء حدث تحسين في ملاك المشاة ، وبرز منهم قواد اشتهروا فيما بعد . وطوال سنوات ، كانت القيادة العامة أو بالحري هيئة أركان الحرب هي التي تدير المعركة ، وذلك لنقص في الملاكات العليا . وفي أول حزيران سنة ١٧٩١ صدر أمر إلى الفرق نيطت بموجبه بالمعاونين العامين « رؤساء المكاتب » المسؤوليات التالية :

« جميع الاستطلاعات العسكرية » .
« إدارة الأعمال الطبوغرافية » .
« المذكرات العسكرية المتعلقة بالخطة العامة لعمليات الحرب » .
« المذكرات أو العمليات المتعلقة بالحدود » .
« شرح الأوامر العامة وإرسالها الى جميع القطع الحربية » .
« تفتيش المراكز العسكرية ومهاجع الجنود » .
« إدارة حركات الجنود داخل القطع وقيادة الأرتال » .

وأصبحت هيئة أركان الحرب تُعتبر كاحتياطي للقيادة : وكان ضباطها ، بالفعل ، يتميزون بقيمتهم المهنية ، وبمعرفة نوايا قائدهم . وكانوا يُكلّفون غالباً بالقيادة الوقتية في المعارك ، ومن بينهم يُختار المرشحون لرتبة جنرال .

وحدثت الظاهرة نفسها لتوزيع السلطة في السلّم الحكومي . والواقع أن تخلي « ديموريز » عن حزبه ، وبعض حالات الفشل ، حثت « جمعية السلامة العامة » سنة ١٧٩٣ على فرض إدارتها على سير الحرب ، وقد ساعدها في ذلك مكتب الطبوغرافيا حيث يقيم « كارنو » . فتخلت عملياً عن الجنرالات . فوجد هؤلاء أنفسهم في قلب المعركة مجردين من كل حرية في العمل بسبب وجود المبعوثين

بهمة . ثم ان الشك الذي كان يُلاحق به القادة العامون دفعهم الى التهرب من كل مسؤولية : من هنا وُجدت المجالس الحربية العديدة التي كانت تُعقد باشتراك الممثل. والنتيجة انه من سنة ١٧٩٣ الى سنة ١٧٩٥ كانت البلاد تعيش في فوضى تنازع السلطات . ومع كل ذلك ، وشيئاً فشيئاً ، وبمقدار ما كانت التحسينات تدخل على ملاك الجيش تحت إدارة « كارنو » وبعض القادة العسكريين القديرين، فقد برز تكتيك واستراتيجية حقيقيــان ، مأخوذان في قسم كبير منها من منجزات القرن الثامن عشر . ففي معركة « واتينيي » التي شُنّت ضد عدو يقل في العدد ، وبعد أوضاع مبدئية مخجلة كرّس الانتصار للمرة الأولى منـــاورة حديثة : هجوم فرقتين على « واتينيي » ، تغطيهما فرقتان من اليمين وفرقة من اليسار . ونرى في هذه المعركة : تثبيت العدو ، العمل الموحد لثلاثـــة أرتال ، تعزيز الميمنة بتسع كتائب وسريتين من الخيالة أُخذت من الوسط والميسرة ، أي ما مجموعه (٦٠٠٠) جندي يهددون مؤخرة العدو. وأخيراً سمح الارتباط الموفق بين الفرق أن يكون للمدفعية دور فعّال .

والواقع ، كما يقول « جوردان » نفسه ، أن من الأسباب التي أدّت الى ربح هذه المعركة التدابير التي اتخذها العدو، وتخاذل الحلفاء. ولكنهم، من جهة ثانية، لم يستغلوا هذا النصر . غير أن معركة « واتينيي » ، على صعيد المناورة ، هي في الحقيقة ، المعركة الحديثة الأولى .

أما في الحقل الاستراتيجي، فنظريات « منظّم النصر » هي التي يأتون عادة على ذكرها عند الكلام عن مذهب ثوري بكل ما في هذه الكلمة من معنى . إلا ان المبادىء التي أعلنها « كارنو » في الحادي عشر من شهر « بلميفيوز » [1] السنة الثانية للثورة ، المتعلقة بحملة ١٧٩٤ ليست جديدة :

« قبل كل شيء ينبغي مقاتلة العدو في أرض مكشوفة ، ثم اللحاق بـــه والقضاء عليه . عندئذ تسقط المدن بسرعة من تلقاء نفسها . يجب أن يكون

---

١ – من أشهر روزنامة الثورة الفرنسية ، يمتد من ٢٠ كانون الثاني الى ٢٠ شباط .

العمل دائماً جماعياً وهجومياً ، وأن يكون النظـام صارماً ... ابقوا الجنود في حالة عمل ، دون إرهاقهم ... واتبعوا العدو الى أن تقضوا عليه قضاء تاماً » .

إن هذا النص يمكن أن ينسب الى قلم « غيبير » . وعلى صعيـــد التطبيق نعرف طريقة « النطاق » التي اعتنقها « كارنو » نفسه ، هـذا الذي كان يعرف أن ينصح نظرياً وحسب ، بمبـدأ توفير القوى . ذلك لأن أمراً آخر هو ثوري بالطبع، منع مهما كانت الظروف تسليم أي قطعة من « أرض الوطن المقدسة ». فكانت النتيجة أن القادة أخذوا يترددون في تطبيق مبدأ توفير القوى خوفاً من المجازفة ومن أن يوصموا بالخيانة .

أما خطة «كارنو» لحملة سنة ١٧٩٦ فقد اكتفت بلحظ أربعة جيوش فرنسية (جوردان ، مورو، كيليرمان، بونابرت) تتفق عددياً مع الجيوش التي تواجهها.

وفي مثل هذه الشروط،وإن كان الجنود قد أظهروا حقيقة شيئاً من الحماسة الثورية ، وخصوصاً متطوعو سنة ١٧٩١ ، وإن كان استعمال طريقـة المناوشين بالزمر ، وقد لجأوا اليها تحت ضغط الحاجة ، قد أعطت أحياناً بعض النتائج ، فإن في هذا ايديولوجية سياسية أكثر مما هو تجديد في الوسائل التكتيكية . إلا أن للثورة فضلاً في ما يتعلق بالإسكان : لأنها عرفت كيف ترفض طريقة المخازن الموروثة عن القرن الثامن عشر . و « كارنو » بجعله الجنود المسخّرين يعيشون في مراكز معينة أعطى القطع الجمهورية قدرة على التحرك تسترعي الانتباه .

وبوجه عام ، فإن انتصارات الثورة الفرنسية التي كانت تشجعها وتُغري بها « جمعية السلامة العامة » ليست غريبـــة ، ويمكن أن تُنسب إلى تدريب تحسّن بالتدريـج ، وإلى بعض الظروف الملائمـة ، أكثر مما تُنسب إلى مذهب عسكري جديد :

– قبل كل شيء : انشقاق المتحالفين .

– التفوق في العدد ، ويبدو أن الفضــــل يعود في كل شيء إلى الحكومات الثورية .

– وأخيراً الحصون العديدة ، فقد ساهمت هذه الحصون التي تركها فوبان في الانتصارات الفرنسية ، بالتغطية التي كانت تؤمنها لتشكيلات الجمهورية ، وبالضعف الذي كان يسببّه للتحالف احتلالها أو محاصرتها .

وعلى الرغم من كل ذلك ، فقد حدث أن توضحت الأفكار شيئاً فشيئاً ، وقد كتب الجنرال «فافه» في ما يختص بهذا الموضوع : «إن قوانين حكومة المؤتمر الوطني باستدعائها المواطنين من جميع المراتب الاجتماعية إلى حمل السلاح قد ألقت في الجيش بهذه الشبيبة من عامة الشعب ، التي ترعرعت في مدرسة كتّاب القرن الثامن عشر . فكانت منبتاً للقادة العسكريين العظام في الجمهورية . ففي بدء الأمر كانوا جدداً في المهنة... وفي سنة ١٧٩٦ كان جنودنا قد تمرسوا ، وأصبح ضباطنا وحتى قادتنا العسكريون الكبار أفضل العسكريين في اوروبا جمعاء» .

وقد قيّض لهذا الجيش الوطني ، المتحرك ، المؤهل للحرب الجماعية ، هذا الجيش الذي ضم أفضل العقول المتشربة بالفلسفة ، والذي تغذّى بفضل كارنو وبعض القادة الأقدمين بمذاهب القرن الثامن عشر العسكرية ، أضف إلى كل هذا ممارسة فعلية للحرب ، لقد قيّض له جنرال مدهش ، هو أيضاً تلميذ غيبير ، سيجعله يكسب أكبر الإنتصارات في القرن الثامن عشر ، انتصارات لا تحمل طابع أكثر من مدرسة ، بل طابع عبقرية فذّة .

•

والواقع أن ليس هنالك مدرسة ولا طريقة نابليونية ، والمبادىء الكبرى لستراتيجية وتكتيك نابليون لا تكشف عن شيء من ذلك . لقد وجد نابليون في مذاهب القرن الثامن عشر وخصوصاً لدى غيبير :

– طرق المناوشين بزمر كبيرة .

– التشكيلات الخاصة بالمناورة : رتل أو صف .

– التدرّج في الوقت لدفع الجنود إلى المعركة بالتتابع : الفرق الخفيفة ، ثم الخط ، ثم الاحتياط .

– قتال التراجع .
– بسط الجبهة بفضل تكاثر النار .
– التبدّد للصيانة ، والتجميع للقتال .
– مبدأ التقسيم إلى فرق .
– أهمية المدفعية التي جعل منها منذ معركة واغرام قطعة رئيسية في معاركه .

ان نابليون في النهاية ، هو جنرال استقرائي ، يطبق على كل حالة مجموع معارف عصره أفضل تطبيق : « ليس هنالك قواعد دقيقة محددة ، وكل شيء يتوقف على الصفة التي وهبتها الطبيعة للقائد . فصفات القائد ، وأخطاؤه ، وطبيعة جنوده ، ونوع الأسلحة ، والفصول ، وألف مناسبة اخرى هي التي تجعل ألا تتشابه الأشياء أبداً » .

وعلى الرغم من عدم وجود « طريقة» نابليونية ، فإننا نجد في جميع حملات بونابرت هدفاً للتحقيق ، وفي سبيل هذه الغاية كان يلجأ إلى جميع الوسائل المعروفة ويطبقها في المناسبات الخاصة ، وعلى الجيش في قلب المعركة . وميزة نابليون هذه في قدرته على التطبيق ، هي التي جعلت لمناورته مظهراً خلاباً . ولم تكن الغاية عسكرية وحسب ، بل هي سياسية قبل أي شيء آخر : إنها المعركة الحاسمة بأقل ثمن ممكن ... وهذه المعركة كانت شغل نابليون الشاغل. وكانت تهدف ، باستغلال النجاح استغلالاً سريعاً ، الى القضاء على العدو قضاء تاماً ، وهي التي يشير اليها « كلوزويتز» بأنها غاية الحرب المنشودة .

والواقع أن ديناميكية وسرعة معارك بونابرت مدهشتان حقاً : لقد تسلم قيادة الحملة الايطالية في ٢٧ آذار سنة ١٧٩٦، وابتداء من ١٢ نيسان أخذ يمهّد لمناورته في «مونتنوتي». وفي التاسع من آذار سنة ١٨٠٠ وصل الى جنيف على رأس جيش الاحتياط : وفي ١٤ حزيران كان انتصار « مارنغو » . وفي سنة ١٨٠٦ قضى على الجيش البروسي باثني عشر يوماً من الحرب . لقد كان نابليون يفتش باستمرار عن « الحرب الخاطفة » وخصوصاً في سنتي ١٨١٤

و ١٨١٥ . إن « معركة الرضى المتبادل » الخاصة بالقرن الثامن عشر قد انتهت حقيقة : وصار الامبراطور ، على العكس ، يريد فرض المعركة على عـــدوه . ونستطيع أن نميز في استراتيجيته وتكتيكه المراحل التالية :

– على الصعيد الاستراتيجي : أخذ المبادرة بالتخطيط للمعركة تخطيطاً هجومياً واضحاً .

– عمليات لفرض المعركة .

– تجميع القوى في سبيل المعركة .

وعلى الصعيد التكتيكي : الجمع بين العمل الجبهوي والعمل على الجنــاحين أو في مؤخرة العدو .

– وعلى الصعيدين معاً : وحدة التوجيه .

إن الفن العسكري بحسب قـول الامبراطور نفسه ، هو « إشراك الجميع بالتنفيذ » ، ولكنه بعد حملته على ايطاليا أخذ يجمع بين يديه كل مـا يتعلق بسير العمليات في المعركة . ثم تطاول على النظام السياسي ، ووقّع معاهـدات « ليونن » ، مستغلاً كل ذلك لصالحه ، وضمّ اليه جميع السلطات كما فعل قبله الاسكندر الكبير وهانيبعل وفردريك الثاني.

إلا أنه في نهاية ملكه أجبره الاختلاف والابتعـــاد عن مختلف المسارح على توكيل بعض السلطات الى الغير مما أثر تأثيراً سيئاً على النجاح سيما وانه لم يدرب مرؤوسيه على الاستقـلال في العمل ، ولم يكفّ عن تدخله المستمر في شؤونهم . وقد جرّ هذا النقص الى خسارة اسبانيا ، والى فشل الأمير اوجين سنة ١٨١٢.

ولكي يفرض المعركة على عدوه استغلّ نابليون استغلالاً كاملاً مبدأ التجزئة الذي يسمح له بنشر جيشه وتطويق مؤخرة عدوه ، هـذه المؤخرة التي كانت تصله إما بعاصمته وإما بخطوط مواصلاته . إذن ، فعدو نابليون كان يجد نفسه، غالباً ، محاصراً في معركة مقلوبة الجبهات .

وقد عرف نابليون كيف ينجو من تهديد كهذا بمناورته الفنية ، فكان يمزج

بين الطريقة الثورية ، والمصادرات ، والإسكان في البيوت ، مع إقامة « مراكز مختلفة للعمليات» فيمكّنه كل هذا من تغيير خطوط مواصلاته في قلب المعركة: « إن الفن العظيم في المعارك هو تغيير خط العمليات في أثناء القتال ؛ وهذه هي إحدى أفكاري ، وهي جديدة كل الجدّة » .

وكان نابليون يشن المعركة دائماً بتطبيق دقيق لمبدأ توفير القوى ، مغتنماً فرصة تبدد عناصر العدو بسبب التقسيمات الداخلية بين المتحالفين، أو أنه يفوز بها بخدعة أو بأعمال تضليلية يساندها عمل مرن تقوم به الفرق في العمق أو في الاتساع . وقد أصبح هذا العمل صعب التحقيق في نهاية ملكه بسبب الأسلحة الثقيلة .

ولكي يكون له طريقة خاصة في حشد القوى حرص نابليون دائماً على إبقاء قواه « مجتمعة » ، معللاً ذلك بأن العدو أمام استعداد كهذا لا يستطيع ، في وقت واحد ، منع حشد المجموع وإلحاق أضرار فردية في العناصر الأساسية من القوى الفرنسية .

إن هذا الاستعداد يرسم لنا صورة عن معركة نابليون ، ويمكننا من عرضها على الشكل التالي :

— تثبيت العدو باشتباك تقوم به الجبهة .

— هجوم على الجناح أو على المؤخرة يمهد له بحركة دائرية أو بعملية التفاف .

— ومن ثم ، وبعد خلق التشويش المعنوي والمادي في صفوف العدو ، يجيء دور « المفاجأة » الشهيرة ، أي تدخل الكتلة الاحتياطية التي يطلقها الامبراطور بنفسه .

— وأخيراً ، استغلال النجاح (مثلا ماسّينا في سنة ١٨٠٦) .

وهذه المناورة ، مع بعض التعديلات ، ومع نجاح كامل أو غير كامل ، نجدها في جميع معارك نابليون .

ففي ريفولي سنة ١٧٩٧ ، بينما كانت أرتال « ألفنزي » الأربعة تعبر ، بالتتابع ، وادي « أديج » ، قضت عليها واحداً بعد آخر فرق جوبير وماسينا وناي المتمركزة على هضبة ريفولي . وهذا تطبيق ملحوظ لمبدأ توفير القوى ، إذ أن عدد مجموع القوى الفرنسية التي اشتبكت في القتال كان أقل من عدد مجموع قوى ألفنزي ، ولكنه كان يفوق عدد كل رتل من أرتال العدو وقد أخذ منفرداً. وفي « إينيا » استعد نابليون لهجوم يقوم به «لان» ، عند الفجر ، مؤزّراً بـ « أوجيرو » (عن اليمين) و بـ « سولت » (عن اليسار) ، وكان على « ناي » أن يتبع حركة القلب ليساهم مع الحرس بالهجوم الحاسم . سارت العمليات أولاً وفقاً للخطة ، ولكن « ناي » ، بسبب الضباب ، مرّ بين « أوجيرو » و « لان » واصطدم بقلب البروسيين. عندئذ أمر نابليون بالهجوم العام على الجبهة وعلى جناحي العدو ، فكانت النتيجة هزيمة « هوهنلوه » .

وفي واغرام استعد الامبراطور لهجوم يمتد طوال الجبهة لكي يثبت مجموع القوى العدوة . فركز مجموعة متفوقة في العدد لخرق ميسرة العدو (ماسينا ودافو) . ولكن الميسرة البروسية شنت أولاً هجوماً على الجيش الفرنسي رده « دافو » . وتخلى برنادوت عن موقعه ، وكان على خطأ في ذلك ، فسارع ماسينا إلى احتلال الموقع بأمر من نابليون ، بهجوم قام به على ميمنة البروسيين ، تاركاً أمام « أداكلا » فراغاً توغلت فيه خيالة العدو ، ولكن احتياط الخيالة ردها على أعقابها بمساندة مدفعية مؤلفة من مائة قطعة يشرف عليها « دروو » . وأخيراً ، جاء دور المفاجأة والنصر ، وقد تمثلا في هذه المعركة بحركة التفاف طوق بها « دافو » الحرس البروسي بينما عادت الأمور الى طبيعتها في الميمنة الفرنسية التي أوتي نابليون رباطة الجأش فلم يقوّيها ، بفضل تدخل « الرتل » ماكدونالد (ثلاث فرق) في اللحظة الأخيرة فقط . وفي هذا أحد أفضل الأمثلة عن عبقرية نابليون : تطبيق الخطة الأولية على الوضع الراهن كما هو على حقيقته ، وجعل التشكيلات والوسائل على مستوى الجيوش . وهنا ينبغي أن يعوض استعمال الرتل الكثيف والمدفعية الكثيفة عن النقص في مناورات جيش

أكثر عدداً ولكنه أقل ثباتاً من جيوش العصر « الفني » .

إذن ، فمناورة نابليون تتميز بمهارته في المزج بين الحركات ، وباستعداده لاحتمال الصدمة ، بدون أن يضحي بمبدأ التجميع ، وكذلك بسرعة إدراكه للحظة الحاسمة والإفادة منها .

ولقد كان نابليون يعتمد في مناورته على الاستخبارات التي تمكنه من إحكام المناورة بما يوافق المناسبات. وإليه يعود الفضل في أن عرف المذهب العسكري الفرنسي طريقة « إمكانات العدو » . وهذه الطريقة التي هي في وقت واحد بسيطة وعلمية ، تقوم على مواجهة المناورات المعروضة في البدء على العدو ثم إلغائها بالتتابع عندما تجعل الوقائع الأخيرة المعروفة التنفيذ مستحيلاً ، وفي هذه الحال لا يبقى أمام العدو سوى إمكان واحد ، وكما يقول الامبراطور : « يتمزق الحجاب » ، ويسمح العدو نفسه بمواجهة المناورة الموافقة للظروف . إن هذه الطريقة تعارض طريقة « نيات العدو » (التي اعتنقوها في بعض الجيوش الأجنبية) . وهذه الطريقة الأخيرة هي أبعد عن العلم من الأولى لأنها تعتمد على عنصر مشكوك فيه ، متغير ، من الصعب كشفه بيقين .

وامتاز نابليون بالاضافة الى ذلك ، بفن السير ، سواء في تقنية الاستطلاع أو في تقنية النقليات، فقد استخدم حتى عربات البريد في نقل حرسه. وأخيراً، عرف كيف يمزج بين جميع الأساليب، المخازن والمصادرة، للإسراع في تقدم وحداته .وهو جدير، من جهة ثانية ،بكسب معارك «بواسطة سيقان جنوده» .

وبالمقابل ، فإن أكبر خطأ في خطط نابليون يكمن في طريقة القيادة ، إذ احتفظ بكل شيء لنفسه ، ولم تكن أوامره تصدر بشكل أمر عام ، بل كان يبعث بتعليمات إفرادية لكل من مرؤوسيه . وبقيت هذه الطريقة مقبولة حتى سنة ١٨٠٩ ، ولكنها لم تعد صالحة لحرب الجيوش ، أو بكل بساطة لمختلف المسارح . لا أحد يعرف ما هي تعليمات نابليون ، ويعلن « برتيه » نفسه أنه « لا شيء في الجيش » . والواقع ان الامبراطور لم يجن ، حتى من هيئة أركان

حربه ، الانتاج الممكن ، لأنه لم يكن يأتمنها على أفكاره .

ومع ذلك ، فقد أعطى نابليون لأركان حربه الصفة الأساسية التي ستحافظ عليها فيما بعد التقاليد الفرنسية : اي انعدام الشخصية .

●

والخلاصة ، انه مع عدم وجود طريقة نابليونية ، فإن بونابرت كان متفوقاً في عقله ، وفي معرفة المبادىء التي طبعه تطبيقها بطابع العبقرية . إن معرفته بالناس واطلاعه على الأنظمة مكنّناه من المزج والتركيب ، وهما « هبة إلهية » في حقل الاستراتيجية والتكتيك اللذين تبعد دراستها عن أن تقدم مناورة نموذجية بل إنها تعرض أعظم أمثولة توضيحية في التاريخ العسكري الحديث .

٥

المذاهب العسكرية من بداية القرن التاسع عشر الى حرب سنة ١٨٧٠

إذا كانت المذاهب العسكرية الفرنسية قد أشهرت اوروبا في نهاية عهد النظام القديم ، فإن ألمانيا قد عرفت ، بدورها ، في بداية القرن التاسع عشر ، نشاطاً فكرياً [١] كبيراً . والواقع أن هذه البلاد قد اتسمت وقتئذٍ ، في جميع ميادين الفكر ، بعنفٍ مأخوذ من شعورها الوطني العميق . وقد تجلى هذا الموقف الجديد للمفكرين ، بأجلى صوره ، في ردّ فعلٍ قوي ضد ميول العصر السابق . ففي الفلسفة تفتّح مبدأ « كَنْت » . وفي الحقل العسكري ثارت الفكرة العسكرية البروسية ، التي كانت تحرّكها الرغبة في أخذ ثأر قريب ، ضد جميع المذاهب الاستراتيجية القديمة، المطبوعة هي أيضاً ، بمذهب العقليين الذي أصبح مرفوضاً لأنه يخالف العبقرية الألمانية .

وقد جسّد « كلوزويتز » بإصلاحاته الاتجاه الجديد، غير أن كتّاباً كباراً قبله تشبعوا بالأفكار الفلسفية والاستراتيجية في بداية هذا العصر ، ساهموا هم

---

١ – راجع مقالنا : الفكرة العسكرية الألمانية في عهد كلوزويتز (مجلة الدفاع الوطني ، تشرين الثاني ١٩٤٩) .

أيضاً – بما لا يقبل الجدل – مساهمة لا يستهان بها في العلم العسكري الحديث ، واستحقوا أن يؤتى على ذكرهم .

نذكر منهم أولا « برانهورش » الذي نشر في سنة ١٨٠٢ كتابه « فكرة حول فن الحرب » وهو أول مؤلف عسكري هام يكتب تحت شعار الفلسفة الألمانية الحديثة . لقد قرأ هذا المؤلف « نقد العقل » لمؤلفه « كنت » الذي ظهر سنة ١٧٨١ ، وحاول أن ينقل بطريقة من الطرق هذه «الفكرة» الجديدة في الاستراتيجية : ومثلما أراد كنت أن يعين للعقل حدوده ، كذلك حاول برانهورش أن يظهر أن حقل الحرب يتجاوز حقل العقل . فللحرب بالنسبة اليه أسباب يجهلها العقل . وفي هذا تأكيد للاعقلانية الألمانية في رد فعل ضد العقلانية الفرنسية في القرن الثامن عشر .

كثيرة هي الأشياء التي لا يدركها العقل في الحرب الحديثة ، والتي يمكن أن تنسب الى حقل المفاجأة . ولقد قادت برانهورش دراسة معركتي « كولان» و « كونرسدورف » بنوع خاص إلى القول بأن العلم القديم لم يعد كافياً ، فكم بالحري مذهب فولار ، وأن تأثير عامل النار حمل الى المعركة الحديثة عنصراً جديداً هو « الحظ » الذي يستحيل تقويمه بناء على مبدأ عقلي .

وإن لفي هذا أحد « حظوظ » الحرب ، أما الحظ الثاني فهو شخصية القائد التي لا تخضع لأي مقياس . وإن ما يعجب برانهورش في فردريك الثاني هو ، بالضبط ، شخصيته التي لا تحدد إلا تقريبياً . لقد جاء بكل بساطة بـ « مصيره » وقسطه من الشخصية والحظ . ويعجبه فيه كذلك قدرته على الجمع بين السيكولوجية ، والتكتيك ، والعلوم الانسانية ، ومعرفته بأنواع السلاح . إلا أنه يلاحظ أن المعركة الحديثة ، بسبب إلغاء السلاح الأبيض ، لم تعد تحمل في ذاتها تقرير مصيرها . ويصل برانهورش في استنتاجاته إلى شيء من الارتيابية : « إن تقرير مصير المعركة والنجاح لم يعودا متوقفين على الوسائل المستعملة بل أصبحا نتيجة للخيال والتمثيلات السيكولوجية » . وفي هذا نقد

للمناورة « الميكانيكية » التي تلغي كل تطبيق ممكن تفرضه المناسبات ، وتهمل الجندي كإنسان : « لقد ابتعدت العسكرية عن فن المناورة ، بعد ربة الشعر ملهمة القصائد والأناشيد الملحمية ،عن العلم الذي يعدّ المقاطع ويقيس الأوزان».

ولكن إذا كان برانهورش يقول إن حروب كبار القادة لا تقدم وصفات ناجعة لكسب المعارك ، فإنه يقرّ ، مع ذلك ، بإمكان تحسين القائد الحديث بممارسة الحرب. ويعين برانهورش أخيراً مرحلة انتقال: فهو بـ «فكرته الجديدة» يظهر تارة رجل القرن الثامن عشر ، وطوراً تلميذاً لـ « كَنْت » . فمن القرن الثامن عشر الذي هو قرن الفرنسيين أخذ «إنسانيته» أي احترام الشخصية الفردية . وفي هذا مناقضة لصورة « الطاغية الطيب » . وقد ارتفع صوت برانهورش ، باسم المبادىء الكبرى ، ضد الجيوش الدائمة ، التي تسبب ، بحسب قوله ، الحروب الهجومية ، وتشكل خطيئة ضد البشرية . واعتقد انه بالإمكان الاستعاضة عنها ، في الساعات الحرجة ، بالدعوة الى تجنيد عام ، شرط أن يكون هنالك ملاكات مؤهلة، وحد أدنى من الجنود المحترفين . فكان مؤلف « فكرة حول فن الحرب » ، في ما يختص بهذه الناحية ، رائداً يتقدم عصره ، وإنه لكذلك في مجالات أخرى . وباسم الانسانية أيضاً نادى بوجوب تحسين حالة الجندي (ثكنات بسيطة) وحالة أطفال العسكريين .

ومثل برانهورش ، يُنسب شارنهورش بالإصلاح الذي قام به، الى القرن الثامن عشر ، ولكنه أكثر مرونة من سلفه وأقل تخطيطا. ولسوء الحظ لم تترك له حياته الاجتماعية وقتاً كافياً لوضع مؤلف كبير . ومع ذلك فقد حرّر بعض المقالات وبعض الدروس في التربية العسكرية . ولقد تأثر مثل برانهورش ، بالعقول الكبيرة في عصره ، والتقى بكنت وهردر ، ويبدو أن هذا الأخير قد أثّر تأثيراً كبيراً في تنشئته الفكرية . إن شارنهورش جندي مثقف ويجب أن يكون الآخرون مثله: «فالكابورال (العريف) الذي اشترك في معارك كثيرة ، إن كان بدون ثقافة ، يبقى كابورالاً (عريفاً) ممتازاً وحسب ، على الرغم

من جميع كفاءاته » .

ويتعلق شارنهورش أكثر من برانهورش بالناحية السيكولوجية الحربيــة . ويتردد تعبير «إنسانية» كثيراً تحت قلمه . أما التاريخ فيعتبره تسلسلاً لحالات حسية . وهذه الطريقة في درس التاريخ التي تغلغلت منذئذٍ في الأخلاق كانت تمثل في ذلك العصر تجديداً حقيقياً ، ولم يكن قد واجهها أحد سوى « بورسه » في تنشئة ضباط هيئة أركان الحرب في الجيش الفرنسي . وكان في هذا ، بالنسبة الى شارنهورش ، ردّ فعل نظرية التطور الألمانية ، نظرية « وردأن » ، ضـــد المذهب العقلي الذي كان يهدف الى اكتشاف « الحقيقة » التوازنية الخالدة .

هذه هي الأفكار التي كان يبثّها في دروسه في اكاديمية «بوتسدام» الحربية التي أُنشئت سنة ١٨١٠ ، مستخرجاً الميزة الهامة لكل وضع من أوضاع الحرب ، حاثاً سامعيه على العمل الشخصي والمبادهة ، عوضاً عن التقليد بتطبيق القواعد الصارمة كأشخاص قياسيين. وكانت جميع توجيهاته مبنية على تكوين الشخصية تكويناً حراً مستقلاً : فوجب على أساتذة « بوتسدام » أن يقتصروا على اسداء النصح لتلاميذهم ، وألا يثقلوا كواهلهم (فقط حضور إجبـــاري للدروس عندما تبدأ) .

وبالمقابل ،يعتبر شارنهورش أن ليس هنالك ما يمنع ترك المتمرنين يتخبطون ، والمهم وحده عدم تقييد شخصيتهم . اما التعاليم الأساسية التي نادى بهـــا فهي التاريخ أولاً ، ثم عدد من المفاهيم الفلسفية ، والاجتماعية ، والحقوق العامة ، الخ. وصنّف تعليم الرياضيات في الدرجة الثانية لمساعدة الطلاب على تكوين الفكرة والحكم الصحيح .

وفي بيئة المصلحين التي كان يعيش فيها ُعرف شارنهورش باسم « العـالم » . ولم يكن علمه يهدف ، في الواقع ، إلا الشيء واحد هو : العمل ، سواء في حقل التربية العسكرية أو في حقل التنظيم .

وبالاختصار كان شارنهورش مربياً قبل أي شيء آخر ، لا معلمـــاً يفرض

عقيدة عسكرية لا يمكن مسّها . ولكنه في عمله التربوي تجاوز كثيراً نطــاق الجيش. فساهم في روحية سكان بلاده وعصره. ومثلما كان يريد تفتّح الشخصية، كذلك كان يريد ، على صعيد أعلى ، تمجيد الخلية المتفوقة أي : الأمة . ولقـد كان ، في الواقع ، أحد صانعي الوحدة الألمانية ، إلا أن هــذا القسم من عمله يتجاوز نطاق هذه الدراسة .

فالجيش نفسه ليس سوى أداة في خدمة الأمة . وقـد توصل شارنهورش ، سواء بأبحاثه التاريخية أو بخبرته الشخصية ، الى مفهوم العلاقة المتبــادلة بين الأنظمة العسكرية والأنظمة السياسية . فكان ، من وجهة النظر هـذه ، يبشر بمذهب « كلوزويتز » .

وعلى كل حال ، فإن ما يبرزه هذا التعليم هو العلاقة بين المعركة والنصر : فما النصر إلا نتيجة لربح المعركة ، وما المعركة – مبدئياً – سوى الهجوم. إلا أن الأمر ليس دائماً كذلك ، ففي بعض الحالات يمكن ألا يكون الهدف تحطيم العدو ، بل احتلال موقع يسيطر عليه ، إذا ثبت أن لهذا الموقع أهميـة . ففي مثل هذا الافتراض يمكن ، أحياناً ، احتلال هذا الموقع بتكاليف زهيــدة ، وبدون شنّ معركة .

وتمثل معركة شارنهورش صورة جديدة كل الجـــدة . فالمبدأ الأساسي ، بالنسبة اليه ، هو أهمية عامل النار الذي يجب أن يُحترَز منه بعملية انتشارية في حالة الدفاع ، وبعملية تجميع القوى في حالة الهجوم .

وبالنتيجة فإن شارنهورش ينصح بالعمل على جناح العدو إذا أمكن تركيز الهجوم . وهذه الطريقة التي صاروا يسعون اليها أكثر من سعيهم الى العملية التي تناقضها ، أي الهجوم الجبهوي ، تعرّض المهاجم نفسه لخطر عملية مشتركة المركز (تأثير دراسة معركة لوثن Leuthen) .

ومن جهة أخرى ، فإن الفرنسيين كانوا يباشرون المعركة وفقاً لهذه الطريقة ، ويمكن أن يقسم عملهم الى مرحلتين :

١ – قتال المناوشين لإنهاك العدو .
٢ هجوم كثيف على نقاط محددة .

ويؤيد شارنهورش هذه الطريقة شرط ألا تكون نقاط تطبيق الهجمات متباعدة كثيراً، وخصوصاً ألا يكون للعدو قوى أكثر قرباً. وتوصل شارنهورش بالنتيجة، الى فهمٍ صحيح لمبدأ توفير القوى ومبدأ المناورة. فبالنسبة اليه يكمن كل فن القائد في تجزئة الوسائل تجزئة ملائمة . ويستنتج شارنهورش انه من الأفضل للقائد العادي أن يبقي على الحشد وأن يعمل في «خط مستقيم»، ومفهوم ان هذا هو أردأ ما يكون . وقد توصل الى هذه الملاحظة الصحيحة من دراسته معارك فردريك الثاني ومعارك الثورة الفرنسية .

ولا مفرّ لنا،قبل إنهاء هذا العرض،من إلقاء نظرة إجمالية على الاستنتاجات المختصة بأشكال الحرب، وهي تتعلق خصوصاً بالمعركة الهجومية التي يطبق عليها شارنهورش أربعة مبادىء أساسية :

المبدأ الأول . – مبدأ التفوق في الوسائل: فبين جيشين حديثين يتعادلان في القوة يُعقد لواء النصر لمن هو منهما أكثر عدداً . وقد سبق لنابليون أن قال : «النصر للأفواج الضخمة» .

المبدأ الثاني . – مبدأ الهجوم المركز : إن جيشاً يُهاجَم من جبهات عديدة يمكن اعتباره جيشاً مسيطراً عليه .

المبدأ الثالث . – وجوب اعتبار جيش العدو في المعركة ككل، فتحطيم قسم هام منه يجرّ الخراب على المجموع .

المبدأ الرابع . – مبدأ استعمال الأسلحة المختلفة استعمالاً فطناً: لكل سلاح إمكاناته الخاصة، فيجب إيجاد طريقة الاستعمال الموافقة لهذه الإمكانات.

ولا تفوت شارنهورش الخسائر الضخمة الأولية التي تُمنى بها عملية هجومية . فقد أثبتت الخبرة، في الواقع، انه حتى اللحظة التي يتمّ فيها تصدّع جبهة العدو في نقطة ما، أو في نقاطٍ عدّة، تكون خسائر المهاجم أكثر من خسائر

المدافع . ولكن ، إذا ما حدث التصدع ، فإن المهاجم يقضي على عدوه ، ولا يتكبد سوى خسائر طفيفة .

واستناداً الى هذه الملاحظات يتوصل شارنهورش الى أن يشرح، بالتفصيل، السلوك الذي ينبغي أن يتبع في عملية الهجوم :

القاعدة الأولى . — شرط أساسي إلزامي : إن بدء المعركة يجب ألا يُترك للصدف ، بل يكون وفقاً لخطة موضوعة (نسميها « فكرة المناورة ») ، مع اقتناع القائد بأن هذه الخطة تؤمن له النصر .

القاعدة الثانية . — العمل بطريقة مشتركة المركز لتأمين زيادة فرص النجاح .

القاعدة الثالثة . — اختيار أفضل نقاط للهجوم ، وغالباً ما يكون ذلك على الجناحين ، إلا أن لكل حالة ما يلائمها . وهنا تتدخل شخصية القائد التي تسمح له ، كل مرة ، بالعمل وفقاً لما تقتضيه الأوضاع . وينبغي أن تكون فكرة القائد هي العمل من القوي الى الضعيف في نقاط محددة . وهذا هو الأساسي . وأما الباقي فيصنعه « الحظ » .

ولم يدرس شارنهورش المعركة الدفاعية على الصعيد الاستراتيجي . فهو يواجهها فقط كموقف نحافظ عليه أمام عدو ننوي مهاجمته بالتأكيد ، ولكنه في هذه اللحظة يهاجمنا .

ولا تقوم هذه القاعدة الاساسية المتعلقة بهذا الموضوع على البرنامج فحسب ، بل على الهجوم أيضاً . وهكذا أُدرجت العملية الهجومية في المُعركة الدفاعية .

أما الدفاع « السلبي » فلا يؤمن به شارنهورش . إذ أن المهاجم ، بصفته يملك اختيار الوقت والهدف ، يتوصل دائماً الى خرق إحدى النقاط ، وينتصر في النهاية . ولن يكون الدفاع قوياً بالتأكيد .

غير أن للمهاجَم امتياز الوضع ؛ فيستطيع الإفادة منه والتقليل من تفوق المهاجم ، بادخاله في مناورته عمليات هجومية ، الى اللحظة التي يستطيع فيها

الانتقال الى الهجوم بجرأة ، لأن « الهجوم وحده يحمل النصر » .

وبالإجمال ، يمكن أن تعرض لنا حالات ثلاث :

الحالة الأولى . — لا يريد المدافع أن يتخلى عن امتيازات يقدمها له الوضع (وهذا ما نسميه في أيامنا الحضرة « دفاع بدون أي تفكير في التراجع ») . ففي هذه الحالة يحتل المدافع الخط الذي عليه أن يذود عنه ، ولكنه يحتفظ باحتياط قوي للمناورة .

الحالة الثانية . — يوضع قسم من الجيش للدفاع عن الموقع ، ويشن القسم الثاني هجوماً على جناح العدو أو على مؤخرته .

وبلغتنا الحديثة نقول : تثبيت جبهة العدو بقسم من الوسائل ، ومهاجمة جناحه أو مؤخرته بما تبقى من القوى .

الحالة الثالثة . — ترك الموضع لملاقاة العدو المهاجم ، والانقضاض عليه في أثناء سيره .

ولا يؤمن شارنهورش بوجود ترتيبات صناعية تسمح بالتفضيل واختيار إحدى هذه الحالات الثلاث . ولكنه كان قد استشف بوضوح مفهوم الدفاع — الهجومي الذي استخرج منه فوش وحده جميع نتائجه المنطقية والعملية في سنة ١٩١٨ .

ولم يتوصل شارنهورش الى استشفاف مناورة التراجع ، إلا أن هذه المناورة — والحق يقال — لم تدرس عملياً إلا في أعقاب حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ .

وبالنتيجة ، لقد رمّم شارنهورش « مناخ » المعركة الحديثة ترميماً جيداً . وكان أحد القلائل الذين ميزوا أهمية عامل النار ، سواء في الهجوم أم في الدفاع ، وقد تكشف عن عبقري بمفهومه للمعركة الهجومية الدفاعية . وهو بصفته الواقعية الواضحة ، ثائر ضد جميع « الوصفات » النظرية لربح المعركة . وإننا لنستطيع — استناداً لما يقوله — إعادة تشكيل مناخ المعركة العام .

ولكن العنصر المسيطر ، المقرر ، هو دائماً « عبقرية » القائد العسكري ، الذي عليه أن يعود الى ذاته فيستخرج منها الإجراءات التي ينبغي تنفيذها . فالحرب من حيث هي علم لا وجود لها . بقي إمكان تنشئة قادة المستقبل وتحسينهم ، وقد اهتم شارنهورش في حقل التنشئة العامة لطلاب « الأكاديمية الحربية » بادخال تدريس التاريخ تحت شكل حالات حسية ، عوضاً عن تدريس النظريات القديمة . فأغرق هكذا طلابه في خضم من الحقائق وأخرجهم من غموض العصور السابقة .

ونشر الجنرال فون لوسو ، مساعد شارنهورش في إعادة بناء الجيش البروسي ، سنة ١٨٠٨ مؤلفاً تحت عنوان «نظرات في تنظيم المملكة البروسية» دافع فيه عن الضرورة الملحة التي تدعو جميع المواطنين إلى الإسراع في الدفاع عن وطنهم بسبب وحدة الذات بين الجيش والأمة .

وفي سنة ١٨١٥ وسع أفكاره في مؤلفه « الحرب » الذي هو بشير بكلوزويتز ، والذي يقول فيه أن الحرب هي آخر حجة تتذرع بها الدول ، وهي ، على شكل ما ، امتداد للسياسة .

فالسياسة تحدد الأهداف ، والحرب تقدم الوسائل لتحقيقها . وبالمقابل ، يستطيع القائد العسكري أن يطلب من البلاد — بعد الأخذ بعين الاعتبار وضع البلدان الأخرى — بأن يكون لها اقتصاد وأنظمة تؤمن سير العمليات الحربية بنجاح : وهكذا نرى أن مفهوم « اقتصاد الحرب » ليس جديداً كل الجدة في ألمانيا :

أما الذين يعوّل عليهم في حقل الحرب ، كما في حقل السياسة ، فهم الأشخاص الأقوياء الذين أنشئوا لا تنشئة عسكرية فحسب — كما سبق ورأينا — بل بما يوافق الفلسفة الانتقادية التي بدأها كنت . وينبغي لهذه الفلسفة أن تقدم « فلسفة للحرب » وهذه الفلسفة توصل الى الملاحظة أن نظرية الحرب تعتمد على الخبرة . فيجب إذن « الاحتفاظ بحقل الإمكانات لإلهامات القائد

وحده ، دون غيره » .

وكان للوسّو فضل كبـــير في أن أحسّ كم هو صعب تقويم العناصر التي يعتمدها القائد في اتخاذ قراراته ، بسبب هذه القوى المعنوية التي أدخلها التعليم الحديث ، وهو على حق ، كعنصر إيجـابي أو سلبي في ميزانية هذين العاملين : « الوسائل » و « العدو » .

ويعتبر لوسّو أن الحرب ليست بالضرورة مجموعة من القواعد المنطقية ؛ أما بعض الطرق التي تنطبق عليهـا فمليئة بالحالات الاستثنائية ، بحيث أن « الفن يعمل قليلا ، وعلى الفنان أن يعمل كل شيء » . ويلتقي في هذا مـــع نابليون الذي كان يشخّـص أمام عينيه « فن الحدس والتنسيق » .

وفي حين أن برانهورش بقي على اعتقاده بوجود علم موضوعي للحرب في بعض الحالات ، فإن لوسّو أثبت سيطرة الشخصية وعبقرية القائد العسكري . ولكنه ينظر الى هذه العبقرية كأنها نوع من التثليث ، مؤلف من القوى البدنية ، والفكرية ، والمعنوية . والجندي الآلة ، بحسب بعض وجهات النظر ، إذا مـا سُـيّر دبت فيه الحياة . ويقول لوسو أن العلم ، مهما بلغ من القوة ، لا يمكن أن يكون له تأثير إلا إذا اقترن باستعداد كبير في العمل .

وقد انهمك لوسّو في كتابـة نوع من التاريخ الطبيعي للعبقرية العسكرية . فأهمل ، تقريباً ، دراسة أشكال الحرب . وبصعوبة كلية وضع بحثـاً عن العلاقات القائمة بين الهجوم والدفاع . فأيد أفضلية الهجوم « لأنه حتى في حالة الدفاع يمكن الانتقال الى حالة الهجوم » . وهو ، مثل شارنهورش ، لا ينظر الى دفاع سلبي بكامله ؛ فعمل الهجوم ، في أثناء الدفاع بالضبط ، هدفه إجبـار العدو على الانتقال الى حالة الدفاع .

وليس العنصر الحاسم ، بالنسبة الى لوسّو ، هو شكل الهجوم أو الدفاع في المعركة ، بل هو تفوق القائد المعنوي ؛ كما أن الدفاع ليس شكلا منحطـاً من أشكال المعركة لأنه ، في النهـاية ، ينبغي أن يقـــدم للمدافع امتياز الهجوم .

وهذا صحيح حتى في الدفاع عن مكان محاصر ، شرط أن يقتنع المحاصَر بتفوقه على المهاجم، وهو تفوق يعبر عنه باستعمال كامل للرجال والمدافع والتحصينات، وتكون الغاية منه تمديد الحصار المفروض على العدو ، وانـــه لعمل « تحتمل نتائجه تآويل شتى يصعب تحديدها في نظرية » .

وغاية الهجوم ، بالنسبة الى « لوسُّو » ، هي المعركة التي تستطيع وحدهـا أن تنتزع تقرير المصير ؛ أما المقياس الذي يُعتمد للقول بأن معركة محددة قـد تقرر مصيرها فيتوقف على كمية العوامل ، وخصوصاً على الرأي الذي يكوّنـه العدو نفسه عن هزيمته .

وعلى كل حال ، فالحرب لا يمكن أن تنتهي إلا بإضعــاف « قوة الرفض » لدى العدو ، الذي تُملى عليه شروط السلام بضربات السيوف .

هذه هي أفكار « لوسُّو » الأساسية معروضة باختصار ، ونستطيع القول أنه قريب من شارنهورش ، ولكنه الى ذلك يبشر بكلوزويتز. وهذه الملاحظة المزدوجة يمكن أن تُطبّق كذلك على روهل فون ليليانسترن .

إن روهل فون ليليانسترن هو نموذج «الجندي المثقف» ، لقد كان على علاقة بالعقول المميّزة في عصره ، ووضع مؤلّفاً عنوانه مثل عنوان مؤلف كلوزويتز: «فن الحرب Vom Kriege » سنة ١٨١٤،وملخصاً لاستعمال الضابط سنة١٨١٧.

لقد دافع ، بوجه عام ، عن أفكار شارنهورش (ضد جوميني بنوع خاص) وعن أفكار صديقه كلوزويتز الذي يضعه في مرتبة أسمى من مرتبة نابليون . وأبرز هو كذلك أهمية العوامل المعنوية ، وأهمية شخصية القـائد في الحرب ، حيث كل شيء ليس منطقياً وعقلانياً . وهو الذي يقول أن الحرب هي «مزيج من الفن والحظ » إنها نوع من اللعب : « فالذي لا يودّ أن يعتبر الحرب إلا فناً ، وحتى علماً أو عملية حسابية ، والذي لا يريد أن يقدم على عمل إلا إذا توافرت له الأسباب الكافية ، وضمن الى جانبه الحد الأقصى من احتمالات النجاح ، فلن يفلح كثيراً » .

وقد أشار روهل فون ليليانسترن ، قبل كلوزويتز ، الى الصفة الأساسية لسير الحرب ، التي ليست سوى وسيلة موضوعة تحت تصرف الدولة تحقق بواسطتها أهدافها السياسية . نجد هنا تأثير تعاليم شارنهورش ، كما نجد هذا التأثير في مفهومه للعمليات . فبالنسبة الى ليليانسترن ، وكذلك كان يفكر شارنهورش، ان الحكم الشخصي هو كل شيء . إذن ، لا مخططات، ولا حكماً سابقاً ، خصوصاً في ما يتعلق بالصفة الهجومية أو الدفاعية للعمليات . وهو يعتبر أن الهجوم والدفاع لا يبدوان في المعركة كشكلين متناقضين بوضوح . وعلى هذه النقطة الأساسية طور ليليانسترن تعاليم شارنهورش التي حمل إليها كلوزويتز ، في العصر نفسه ، تتمة شخصية ونهائية .

التحق كلوزويتز بالجيش في ريعان شبابه ، وفي سنة ١٨١٢ انتقل الى خدمة القيصر، وابتداء من سنة ١٨١٨ شغل منصب مدير «الاكاديمية الحربية» ، وبقي في هذا المنصب حتى وفاته تقريباً . وفي خلال هذا الوقت وضع مؤلّفه الشهير « فن الحرب » ، وقد نشر بعد موته ، ويعود الفضل إلى هذا الكتاب، كما يقول « شليفن » ، في تنشئة جيل كامل من الضباط .

إن هذا المؤلّف التحفة هو أولاً ملخص قيّم لجميع المعارف التي كانت تُدرس حينئذٍ عن الفن العسكري ، وهو موسوعة عن الحرب لم يفكر فيها أحد قبل كلوزويتز ، تواجه العمل الحربي في جوهره ، وفي أصله ، وفي أشكال تطبيقه . ويتألف هذا العمل الكتابي القيم من ثمانية كتب ، ليست جميعها كاملة، ويعالج المواضيع التالية :

- الكتاب الأول ، في طبيعة الحرب .
- الكتاب الثاني ، في نظرية الحرب .
- الكتاب الثالث ، في الإستراتيجية بشكل عام .
- الكتب : الرابع ، والخامس ، والسادس ، والسابع ، في أشكال الحرب المختلفة .

– الكتاب الثامن ، تتويج عملي للمؤلف يعين الخطوط الكبرى لمخطط حربي .

هذا هو المظهر الخارجي ، التدريسي على وجه ما ، لهذا المؤلَّف ، ولكن مظهره الداخلي ليس أقل تشويقاً، إذ أنه يبرز بقوة بعض الحقائق الكبرى التي تصدى لها ، في الحقيقة ، برانهورش وشارنهورش ولوسُّو وليليانسترن . إلا أن كلوزويتز أعطاها شكلها النهائي . ويمكن ان تُلخص أفكاره تحت ثلاثة عناوين كبيرة .

– العلاقة بين السياسة والحرب .
– معنى الأشكال الأساسية للحرب وغايتها .
– القوى المعنوية وقيم الحرب الذاتية .

العلاقة بين السياسة والحرب . – قبل القرن التاسع عشر لم يكن العمل المذهبي ليؤثر إلا في الحرب في حد ذاتها ، كأنما الحرب هي سلسلة من الأعمال والأحداث المستقلة . فكان الفضل لكلوزويتز في وضعها في إطارها المنطقي والتاريخي . فأظهر أن السياسة هي التي تحدث الحرب ، وهي التي تحددها في كل حالة خاصة . والحرب مستمرة افتراضياً في السياسة، فهي تؤلف إذن أحد العناصر ، وقد تكون الحجة الأخيرة في بعض الأحيان . وما هو دقيق، بحسب كلوزويتز ، هو الانتقال من المطلق النظرى الى الحقيقة . لقد ثبَّت القرن الثامن عشر المدرسة الجديدة ، ولكنه ارتكب خطأ بدراسته «السياسة» و «الحرب» كلاً على حدة . وعلى صعيد التطبيق كان هذا المفهوم الخاطىء يظهر عادة بـ « تزحلق » السلطات ، أي بانتقالها : فالذين يُحكمون في أيام الحرب ليسوا ، في الغالب ، هم الذين كانوا يقودون البلاد في أيام السلم . غير أن سقوط بروسيا تحت ضربات نابليون أظهر خطر هذه الثنوية . وينوّه كلوزويتز بضرورة توحيد القيادة السياسية والعسكرية،هذا الأمر الذي بدونه كما يقول شارنهورش « نادراً ما حصلت أشياء هامة في التاريخ » .

والحرب بصفتها وسيلة سياسية تقترب أكثر فأكثر من شكلهـــا المطلق . والواقع انه في حالة وجود صعوبات خارجية لا تُحلّ بوسائـــل أخرى ، فإن فكرة الإبادة بالحرب هي التي تحدد الغاية السياسيـة . وبالعكس ، فإن تحطيم القوى المسلحة الصديقة يجرّ – كما هو معلوم – بعض التأثيرات السياسية .

وعلى ضوء هذه الملاحظات يبدو من الملائم تحقيق روح الحرب الحقيقيـــة . وهذا الروح الذي هو امتداد للفكرة السياسية ينبغي أن نواجهه بتثقيف قائد المستقبل أكثر من اهتمامنا بالشكل الذي هو ثانوي : إنه الروح الفرنسي ، إنها الحماسة الفرنسية ، همـــا اللذان تغلبا على البروسيين في « إيينا » أكثر من أي مذهب حربي .

وبالجملة ، لقد استشف كلوزويتز ما يسمونه اليوم « صوفية » كخط اتحـاد بين السياسة والحرب .

أشكال الحرب . – في هذا الحقل لم يكتف كلوزويتز بوضع بيان بمعارف عصره عن طرق القتال المختلفة ، ولكنه بعـد أن حدد تحديداً دقيقاً الميزات الأساسية لكلٍ من هذه الطرق ، عاد فأوضح تداخلها في الحرب الحقيقية .

ولقد كان أول من نعت الدفاع بأنـــه شكل متفوق من أشكال الحرب ، أولاً لأنه يسمح بالانتظار المفيد ، وبالاستفادة من أخطاء العدو ، وبالموافقة بين الأحداث ، وثانياً لأنه يكون منظـّماً على مهل فيمكـّن من الاحتفـــاظ بقوى متفرغة للخطة المناسبة ، وثالثاً لأنه يستفيد من طبيعة الأرض استفادة تامة .

ولكن ، على الرغم من كل هذه الامتيازات ، ينبغي على الدفاع ألا تغرب عن باله غاية الحرب الأساسية (الحرب المطلقة على الأقل) التي هي القضاء على العدو ، هذه الغاية التي كثيراً ما عميت عنها الحرب «الحقيقية» ، حرب الساعة .

ونتيجة لذلك ، لا يستطيع الدفاع أن يعتبر نفسه إلا في موقف الهجوم ، الذي وحده يحصل على نتيجة . وعلى كل حال لا يستطيع الدفـــاع أبداً أن يكون سلبياً ، بل على العكس ، يجب أن يكون الجهد الدفاعي فعالاً ، وعلى

أعلى درجة من الكمال . وفي سنة ١٨١٢ نادى كلوزويتز نفسه بالدفاع قائلاً أنه يجب تأخير العدو بدون إتعاب الجنود ، بانتظار لحظة الانتقال الى الهجوم .

وفي الهجوم ، فضلاً عن ذلك ، أوقات مقاومة يمتزج فيها الهجوم والدفاع . ويعود الفضل الى كلوزويتز في أنه استشف أكثر انواع الدفاع فعالية : مناورة تراجع أو دفاع مرن .

وكما ان الحرب « الحقيقية » ليست أبداً هجومية بكاملها ، كما أنها ليست دفاعية بكاملها ، فهي كذلك تبتعد عن مفهوم الحرب « المطلقة » ، هذا المفهوم الذي توضحه لنا دراسة نظرية لأسباب هذه الحرب ، وأشكالها ، وغاياتها . ليس هنالك سوى حروب الساعة ، التي تخفف من صفتها المطلقة جميع أنواع الاحتكاكات السياسية والطبيعية والسيكولوجية . وقد درس كلوزويتز بعض هذه الأسباب المقلقة : كالخطر ، والخوف ، وصعوبة الرؤية الشاملة ، وكلها أسباب يتغلب عليها الانسان بالخبرة والارادة الحديديةاللتين هما الأسلحة الأكثر فعالية. وازاء هذه الاحتكاكات يبرز القائد الحربي الذي يجب أن يكون كبيراً بسلطته أكثر مما هو كبير بمعرفته . إذن ، فالبحث في أشكال الحرب ، كما يراه كلوزويتز ، ينبغي أن يكون متصلاً اتصالاً وثيقاً بالبحث في صفات القائد العسكري النفسية .

القوى المعنوية وقيم الحرب الذاتية . — ليست الغاية من التربية العسكرية مرافقة قائد المستقبل الى ساحة المعركة ، بل انها ، بالحري ، مساعدته في تربيته الذاتية ، نوعاً ما على طريقة جان جاك روسو .

وبناء على هذه النتيجة يمكن اخضاع المعنوية لشروط ، هذه المعنوية العزيزة على الألمان والتي هي أقوى من العقل . ويقول كلوزويتز ان الرأس هو الذي يأمر ، وهو الذي يصدر الحكم ، هذا « التأمل » الذي يقول عنه أنه يتفوق على الخيال .

ومع ذلك ، يجب ألا نهمل بعض العواطف الأخرى ، إذ أنها تستطيع التأثير

على العمل ، وقد سببت أحداثاً هامة في التاريخ .

ويذكر كلوزويتز هذه الأمثلة: أنانية قيصر ، وحقد هانيبعل على الرومانيين، والشعور الذي كان يحسه فردريك الكبير بنهاية تتوجها العظمة . وبالنتيجة ، فهو ينادي بالحماسة ممزوجة بالتفكير ، أي «بالجرأة المفكرة»: «إن جرأة يحملها ذهن مسيطر هي طابع البطل » .

إذن ، كل شيء يعود لا الى تهيئة البطل فحسب ، بل القائد بنوع خاص . والنهاية الطبيعية للمذهب العسكري هي تكوين شخصية قائد المستقبل . فمن المنطقي إذاً أن نجد عند كلوزويتز ، كأساس لمذهبه (أو بالحري لتعاليمه) الحرية المطلقة للقائد العسكري الذي يجب أن يتكوّن على ضوء أحداث التاريخ العسكري ليحقق الانتقال الضروري من حقل المعرفة النظري الى حقل القدرة الذاتي .

وبالجملة ، يجب التدريب على « تكوين الرأي » وكذلك تدريس عدد من القوانين تفرضها ضرورة دراسة التاريخ العسكري . وإننا لنجد في كل هذا شيئاً قليلاً من العلم ، ولكن الى جانب تدريب طويل على إصدار الأحكام الصحيحة .

« وهي (النظرية) لا تستطيع أن تقدم له حتى وصفة لحل مشكلة ، وليست جديرة بحصر نظرته حول خط ضيق وإجباري ، بأن تنصب له ، هنا وهناك ، أوتاداً من بديهياتها . إنها تسمح له بنظرة على مجموعة الأشياء ، وعلى أوضاعها المشتركة ، ثم تبعث به إلى دوائر العمل الكبرى ليستطيع التصرف وفقاً لمواهبه الطبيعية . فيحقق عندئذ ما هو صحيح وصائب كمفهوم واحد واضح ودقيق ، يمليه الإحساس بمجموع القوى المتجمعة ، وهذا المفهوم هو نتيجة الإحساس أكثر ما هو نتيجة التفكير » . وهذا الإحساس بالمجموع هو الذي يجب أن يميز القائد العسكري الكبير .

إن مفهوم الحرب الحقيقية ، أي حرب الساعة، يستخرجه القائد من درايته

بالحرب المطلقة . وبعد التحليل يطبق هذا المفهوم وفقاً للظروف . فيتوصل عندئذ إلى تكوين نظرة شاملة يقول عنها كلوزويتز أنها العنصر الصافي لكل فن . ويصل القائد اليها بواسطة هذه « اللمحة » ، هذا « الإدراك السريع للحقيقة الذي يفوت العقول العادية ، أو الذي لا تصل اليه إلا بعد ملاحظة دقيقة وإمعان في التفكير » .

هذه هي المظاهر الأساسية لفكرة كلوزويتز ، الكثيرة التنوع ، ملخصة في خطوطها العريضة . لقد جمع كلوزويتز الجهد الفكري لعصر كامل ، وتمكن علاوة عن الظواهر العابرة لحرب الساعة ، من أن يبلغ مفهوم الحرب المطلقة ، هذا المفهوم الكثير الخصب ، فدرس بدقة تامة معناه ، وأصله ، وطبيعته ، ومرماه . إن كتابه : من الحرب ، هو كتاب صلاة للقواد في جميع العصور ، ولا يقدم هذا المؤلف بحثاً تقنياً فحسب ، بل هو إلى ذلك ، بما لا يقبل الجدل ، إحدى القمم في التاريخ البشري .

●

ينتسب جوميني إلى القرن الثامن عشر وإلى القرن التاسع عشر في وقت واحد وهو من أصل سويسري وقد خدم في الجيش الفرنسي ثم في جيش قيصر ، ونشر سنة ١٨٣٧ كتابه « الموجز في فن الحرب أو اللوحة التحليلية للتنظيمات الأساسية في الحرب الكبرى والسياسة العسكرية » ، وهذا كتاب وجد تقديره عند خصوم أفكار كلوزويتز .

ومع ذلك ، ليس كل شيء باطلاً عند هذا الكاتب ، فبعض المقاطع التي كتبها عن طبيعة الحرب هي جديرة بقلم كلوزويتز . إلا أنه في حقل أهداف الحرب ، يعتبر أن الهدف ذا الصفة الجغرافية (عاصمة العدو) يجب أن يقدم على الهدف الاستراتيجي البحت ، الذي هو : تحطيم قوى العدو . ولكنه أبرز أهمية مبدأ توفير القوى في المناورة .

— الوصول بأغلبية القوى إلى النقاط التقريرية في المعركة ، وخصوصاً

مؤخرة العدو .

– الاقتتال من الضعيف إلى القوي ، شرط ألا تهاجم هذه الأغلبية سوى أقسام من جيش العدو .

– الهجوم الحاسم على النقطة الهامة .

إلا أن جوميني يعتقد كذلك بالأهمية الهندسية في الاستراتيجية والتكتيك. وقد اعتنق نظرة حسابية لسير العمليات : « إن أي مسرح عام للعمليات لا يمثل سوى ثلاث مناطق : واحدة الى اليمين ، وثانية الى اليسار ، وأخرى في الوسط » . وهذه هي حال كل منطقة ، وكل جبهة معركة . ومن ثم فالقيام « بكل حركة استراتيجية ، أو مناورة تكتيكية ، يتوقف على أن نعرف إذا كان علينا أن نناور الى اليمين ، أو الى اليسار ، أو الى الأمام : إن الاختيار بين هذه الحالات الثلاث هو من السهولة بحيث لا يمكن أن يكون أحجية تحتاج الى أبي هول جديد لحلها » . وحدد جوميني الأسس ، والخطوط ، والنقاط ، ووجد ثلاثة أنواع من المعارك الممكنه ، واثني عشر ترتيب للقتال ، وخمس تنظيمات للتراجع ، وخمس تشكيلات للسير نحو العدو . وقد أعلن أن « النظريات الجيدة المبنية على المبادىء ، والتي بررتها الحوادث ، مضافة الى التاريخ الثابت هي ... أفضل مدرسة للقادة » .

وقد استفاد جوميني خصوصاً من مشايعة الجنرال الألماني ويليزن ، الذي يصر على القول في مؤلفه « نظرية الحرب الكبرى » المنشور سنة ١٨٤٠ ، ان الحرب هي علم دقيق ، ويمكن أن يترجم الى دروس إيجابية .

لقد طبق ويليزن بطريقة صارمة جداً المبدأ الأساسي لفلسفة معلمه هيغل : كل ما هو حقيقي هو عقلي ، وكل ما عقلي هو حقيقي . إلا أن هذا المبدأ خاطىء في شقه الثاني »[١] .

---

١ – الكولونيل كارياس ، الفكرة العسكرية الألمانية .

وجاء تيودور فون برنهاردي فقضى على هذه النظرية ابتداء من سنة ١٨٤١، ونسب اليها أنهـا تعود بالبروسيين إلى « أيام إينيا وبرانزلو » . كذلك أوصى الجنرال فون بوين وزير الحربية ، الملاكات (الضباط وضباط الصف) بالمبادهة ، ومنع كل تمسك بالشكليات في المعركة . ولكن عدد أنصار المدرسة القديمـة بقي كبـيراً . وفي عشية سنة ١٨٧٠ فقط تشكلت وحدة مذهبية في الجيش البروسي تحت شعار فكرة كلوزويتز ، وقد تم ذلك – والحق يقال – بضغط من مولتك ، وكان حينئذ رئيساً لهيئة الأركان العامة في الجيش البروسي . إن هذا القائد هو مشرع ومحارب معاً ، وهو الى ذلك تلميذ لكلوزويتز ، وقد كان يواجه المعارك بواقعية هي القسوة بالذات : « السلام الدائم ليس إلا حلماً ، وليس حتى حلماً جميلاً . والحرب هي نظام إلهي ، ومبدأ لتنظيم العالم . . .

« . . . إن أعظم إحسان في كل حرب هو الانتهاء منها بسرعة .

« . . وفي سبيل هذه الغاية جميع الوسائل هي جيدة ولا أستثني منهـا أكثرها استيجاباً للذم [1] » .

ومثل كلوزويتز ، اعتبر مولتك الحرب سياسة مستمرة بوسائـل أخرى هدفها تحطيم جيش العدو واحتلال أرضه . وعرض عقيدته هـذه تحت شكل مذكرة كتبها عن الوضع في حكومات (فرنسا ، والنمسا ، والدانمرك) التي تأثرت بالحملات التي واجهتهـا بالتتابع ، وقد توصل الى الاستنتاجات المتعلقة بالخطة وبالوسائل التي يجب اتباعهـا . بيد أن مولتك يعرف جيداً استحالة تطبيق خطة المعركة بحذافيرها تطبيقاً دقيقـاً ، فنادى بتطبيق يقتضيه وضع العدو وتمليه الاستراتيجية . إن « المذهب الاستراتيجي لا يتجاوز مطلقـاً المبادىء الأولية للعقل الراشد . . . فتصبح الحرب هكذا فناً ، ولكنه فن يستوجب تطبيقه استعمال كثير من العلم » .

---

١ – مقتطفات من رسائل مولتك ، ذكرهـا الكولونيل كارياس في كتابه « الفكرة العسكرية الألمانية » .

ولقد سلك مولتك، في الحقيقة، مسلك كلوزويتز، فلم يقدم «وصفات» جاهزة. فالقائد بالنسبة اليه هو أيضاً، يجب أن يعرف الحرب و «صدفها» التي سبق لبرانهورش أن تكلم عنها، والتي أضاف اليها كلوزويتز «الاحتكاكات»، أي جميع المفاجآت في الحرب الحقيقية. وفضلا عن ذلك، يجب على القائد أن يكون على خبرة بأرض المعركة، وأن يملك المعلومات الكافية عن العدو. فإذا ما تسلح على هذا النحو، استطاع أن يختار بحرية، إنما بما تقتضيه المناسبات دائماً. ولكن، إذا كان كبار العباقرة العسكريين يكتفون بأنفسهم، فإن أكثر القواد الحربيين يجمعون حولهم عدداً كبيراً من المستشارين، ويجنون من ذلك خير الفوائد. وبالنسبة لمولتك لا ينبغي إلا لشخص واحد أن ينصح القائد، وهذا الشخص هو رئيس هيئة الأركان. والواقع أنه دافع هنا عن امتيازاته الخاصة، والتي كانت محدودة باديء ذي بدء بسبب وجود مستشارين كثيرين حول الملك، وتوصل الى إبعادهم في سنة ١٨٦٦ بعد صعوبات كثيرة.

وعلى النقيض من ذلك، لم يكن «مولتك» راسخ القدم في ممارسة فن الاستخبارات. فعلى الرغم من أنه كان مطلعاً اطلاعاً كافياً على شؤون عدوه في أوقات السلم، فإنه لم يكن ليستطيع – بسبب فقدانه طريقة معينة «متابعة» عدوه في أثناء المعركة: «الترجيح في أكثر الأوقات، حتى ولو كان أبعد ما يكون عن المعقول، الترجيح في جميع صوره، لأن العدو يعتقد بأنه هو الصواب... نستطيع كذلك أن نترك الترجيح يقودنا». أي فرق في هذا وبين نظرية نابليون الدقيقة والعلمية عن الامكانات؟ والواقع أن حرب سنة ١٨٧٠ كثرت فيها أخطاء العدو، ما عدا ذلك الجهل الفاضح في ما يتعلق بجيش ماك ماهون الذي كان ذاهباً من شالون الى ميتز؛ وكثيراً ما تُذكر هذه الحادثة على سبيل المثال.

وفي حقل الإسكان كان «مولتك» أول من درس الإفادة الممكن الحصول

عليها من استعمال السكك الحديدية في النقليات الاستراتيجية .

واعتنى « مولتك » بدراسة السير وتركيز الجنود في ساحة القتال . إن قاعدته : « سيروا منفصلين وقاتلوا مجتمعين » هي من إلهام نابليوني . أما عن التركيز في ساحة القتال ، فيرى « مولتك » ، بسبب أهمية تجهيزات الجيوش الحديثة وجوب السير بالأرتال . وكل رتل تؤمن له الطريق مقدمة كشافة . أما نظام السير لمختلف القطع فتحدده ضرورة التدخل . فالخيالة في المقدمة في سير الاقتراب ، وفي المؤخرة في سير التراجع ، ثم تجيء مشاة المقدمة ثم المدفعية ، وأخيراً المشاة . وتطبق الترتيبات المعاكسة في مناورة التراجع . فالفرقة إذن كانت مهيأة لقتال التلاقي .

وقد استوحى « مولتك » من نابوليون الاستراتيجية والتكتيك على أساس المناورة . فيجب أن توافق المناورة طبيعة الأرض التي تكون قد دُرست أولاً . ويوصي مولتك كذلك بدراسة التاريخ العسكري دراسة وافية ، وينادي في جميع كتاباته بالمبادهة التي كثيراً ما سببت له إزعاجاً في حرب سنة ١٨٧٠ . وأخيراً أدخل استعمال « التوجيه » ، وهو توجيه عام لاستعمال القادة الثانويين .

إلا أن قادة بروسيين كثيرين ، وليسوا من الأقل شأناً (ستتنمتز وألفنسلبن) بقوا متعلقين بالطريقة الهندسية وبمعركة التصدع . ومن جهة ثانية بقي الملك طويلاً يقود جنوده بنفسه ، وكان مولتك مستشاره فقط ؛ إلا أن مساهمته مع الملك ومع « رون » في تنظيم الجيش البروسي كانت فعّالة ، وبرزت القيمة الفكرية والذهنية لدى الضباط بوضوح ، وخصوصاً لدى ضباط هيئة أركان الحرب . وقد عملوا كلهم كثيراً ، سواء كانوا من أتباع مذهب مولتك أم من معارضيه ، فأصبحوا مهيئين تماماً للحرب ، سواء بالتمارين التي كان يوجهها مولتك بنفسه ، أو بالمذكرات العديدة عن الحرب الفرنسية الألمانية المقبلة .

وعلى النقيض من ذلك ، فقد كان الجيش الفرنسي حينئذٍ عادم الثقافة . ويخبرنا الكولونيل « ناشين » ، في تعليقاته على « أردان دو بيك » ، أن جنرالاً كان يقوم بالتفتيش فأخرج جنديين من الصف ، وأمرهم قائلاً : « انظر يمينك استقم »[1] ، فلاحظ بسرور أن الجنود يديرون رؤوسهم الى اليمين بحيث تصبح « زاوية العين اليسرى التي هي على خط أزرار الثوب هي الزاوية الخارجية ، لا كما يريدها النظام أن تكون الزاوية الداخلية من جهة الأنف» . والى جانب هذه الركاكة كانت التربية العسكرية مفقودة ، والتفكير محصوراً ضمن حدود ضيقة. وإننا لنتساءل كيف انحدر الجيش الفرنسي الى هذا المستوى ، ولم يعد إلا أداة للعرض ، بعد أن كان قد اشتهر على مسارح خارجية ؟! الواقع ان الجيش الامبراطوري القديم كان قد تشوش تنظيمه تحت حكم وتجديد الملكية ، ولم يعرف نابليون الثالث أبداً كيف يخلق الأداة القوية التى تتطلبها سياسته التوسعية. وأخيراً ، فإن جيشاً نظامياً صغيراً لم يتعود إلا الحروب في الجزائر ، والقرم ، وايطاليا ، لا يستطيع بوجه من الوجوه ، أن يجابه الجيوش الألمانية القوية التي ُدرّبت للحرب الفرنسية البروسية .

والحقيقة ، أن الجيش الفرنسي ، على الرغم من الجهود الملحوظة التي ُبذلت لتنظيمه (دو سول بنوع خاص) ، ما انقطع عن الانحطاط ذهنياً . وكان نظامه في سنة ١٨٣٢ هو انعكاس لنظامه سنة ١٧٩١ ، وقد حدث تحسن قليل قبل سنة ١٨٧٠. وأصبحت قواه المعنوية مرتفعة تحت حكم الامبراطورية الثانية، وأصبح التلاحم بين الجنود والملاكات كاملاً. ولسوء الحظ ، كان ضباطه الكبار لوقت طويل ، إما من المهاجرين الذين أدخلوا بسرعة في الجيش الملكي ، وإما من ضباط الامبراطورية القدماء الذين كانت تنشئتهم العامة غير كافية . وفي هذه الشروط لم يعد بإمكان صغار الضباط ، وكذلك الذين يتخرجون من المدارس ، أو الذين يرتقون من الصف أن يجدوا معلمين أكفاء . أما والحالة هذه، فقد أخذ

---

١ – نداء يعطى في عرض الجيش . (المترجم)

كلٌّ يتعلم الحرب وهو يقوم بها، معتمداً على شيء من الخبرة: فجيش الامبراطورية الثانية طبّق الوسائل الوحيدة التي كان يعرفها ، أي وسائل حرب افريقيا . ولم ينجم أي مذهب جديد عن حروب القرم وايطاليا ، فكان الجنود يحاربون مستلهمين نظام سنة ١٨٣١ القديم، مضافاً اليه الخبرة التي اكتسبوها في افريقيا. وكان هؤلاء الجنود الشجعان يمارسون في وقت واحد تكتيكاً هجومياً وصلباً ، ونستطيع حتى القول تخطيطياً . ونحو سنة ١٨٦٠ كان التشكيل في الكتيبة يتضمن ، في الخط الأول ، المناوشين على صفين مع ثلثي سرايا رماة الرمانات ، وجنود من الرجالة الخفيفي الأسلحة ، ووراءهم يشكل الثلث الأخير قوة المساندة . وفي الخط الثاني، وعلى بعد مائة وخمسين خطوة، وكانت هذه المسافة لا تتغير ، تقف سرايا الرماة الأربع، مجتمعة في رتلين. فكانت الفرقة في سيرها الى العدو تبدو تحت شكل خط أو خطين من الأفواج ، كل منها مسبوق بخط من المناوشين . وكان الاقتراب من العدو ينتهي بنوع من السباق يشتد في النهاية، ثم يضغط الجميع على خط المناوشين من أجل هجوم نهائي بالحراب .

فالمعركة ضد النمساويين ستكون إذن معركة المشاة، أما المدفعية التي تدخلت ببعض السرايا فقط فلم تلعب إلا دوراً تافهاً. ولم يكن في دور الخيالة ما يسترعي الانتباه . إلا أن حرب ايطاليا ستُبرز الثغرات في التربية العسكرية . وبعد سنة ١٨٦٦ جرب الجيش الفرنسي في وثبة أخيرة ، أن يطبق شروط الحرب السائدة في العصر ، ولكن توجيهه المذهبي كان خاطئاً في ما يتعلق بساحة المعركة . والواقع ان الدروس التي استنتجها القادة الفرنسيون من حرب ١٨٦٦ سيظهر خطؤها ، لأن فشل الهجمات بالحراب النمساوية عُزي الى تفوق بندقية « دريْنز » فقط ، لا الى تشكيلات الهجوم الكثيفة جداً .

وفي الحقيقة ان « الملاحظات على التدريب الموجز لمعارك سنة ١٨٦٧ » ما زالت تنادي بالهجوم ، وهي توصي بالخط المنتشر ، وببدء المناوشين بالعمل ، ولكن ليس بزمر كبيرة ، للإعداد لتدخل الأفواج ، فضلاً عن تركيز المدفعية

مسبقاً على أهداف مختارة . وفي الكلام عن الدفاع جاء في هذه الوثيقة : « في أيامنا الحاضرة ، وخاصة مع الأسلحة الجديدة ، يعود الامتياز الى الدفـاع » . وهذه العبارة التي فُسّرت تفسيراً سيئاً ، والتي نجم عنهـا مذهب « الأوضاع الجيّـدة » ، وهو مبدأ دفاعي واضح ، إن هذه العبـارة كانت قاتلة بالنسبة للجندي الفرنسي الذي يؤهله مزاجه للهجوم أكثر مما يبقيه في خطوط الدفاع .

أما « الملاحظات على عمل الخيالة في معركة سنة ١٨٦٨ » ، فقـد حددت دور الخيالة تحديداً مقبولاً : الاستطلاع البعيد، واستغلال نجاح المشاة والمدفعية بواسطة عمليات تقوم بها على الأجنحة ، ومهاجمة القوافل . أضف الى ذلك أن الأوامر صدرت الى الخيالة بتوسيع الرقعة من الأرض التي يستعملونها . ولكن هذه الأوامر الحتمية المستوحاة من ملاحظات براك جاءت متأخرة جداً . فكان خيالة سنة ١٨٧٠ يقاتلون وفقا لمبادىء نظام سنة ١٨٢٩ .

وأخيراً ، فإن نظام سنة ١٨٦٩ ، المتعلق بالخيـالة ، الذي يرى وجوب تشكيل أرتال للهجوم أقل كثافة مع الاحتفاظ بالمربعات ، جـاء متأخراً هو أيضاً . إذن ، فالجيش الفرنسي في سنـة ١٨٧٠ سيكون جيش الدروس المفقودة : دروس حرب «تحرير العبيد» وكانت مجهولة عملياً في فرنسا، ودروس سنة ١٨٦٦ ، وقد أُوّلت تأويلا خاطئاً أو متأخراً . ومع ذلك ، فإن رجلا في هذا العصر ، في فرنسا ، قد استشف المعركة الحديثة ، وهذا الرجـل هو : « أردان دو بيك » . ففي المعركة ، بوجه عام ، أبرزَ بقوة أهمية المنـاورة ، وصفة الجيوش ، وشخصية القائـد ، والقوى المعنوية ، واستشفّ الى ذلك ، أهمية عامل النار في المعركة الحديثة : « اننـا نملك سلاحاً يقتل ست مرات أكثر من الأسلحة القديمة فلماذا لا نستفيد منه لتغطية مسافة معينة بعـدد من الرماة أقل بست مرات ... وهكذا نتمكن من الاحتفاظ باحتيـاط ...) ، ولكن مؤلّفه الذي نشر مجزّءاً قبل سنة ١٨٧٠ فقط ، كان من الناحية العملية مجهولاً من معاصريه .

وبالاختصار ، لم يكن الجيش الفرنسي، عشية الحرب، على أهبة الاستعداد، ووجدنا أنفسنا عندئذٍ ، من جهة ، وجهاً لوجه ، أمام أمة أُعدَّت لخوض غمار الحرب ضد عدو معروف ؛ ومن جهة ثانية ، على النقيض من ذلك ، أمام جنود شجعان بالتقليد ، إنما ينقصهم التنظيم ، ويقودهم ضباط غير مؤهلين لخوض المعركة الحديثة التي فرضتها عليهم القيادة البروسية .

٦ تطور الأفكار في المانيا وفي فرنسا من سنة ١٨٧٠ الى الحرب العالمية الأولى

إن فكرة مولتك التي حوربت كثيراً في القسم الأول من هذا العصر فرضت نفسها بعد الانتصار . وقد وجدت ألمانيـا ، آنذاك ، قواداً جديرين بتطبيق مذاهب المنتصر في سنة ١٨٧٠ ، وفقاً لشروط الحرب الجديدة التي فرضهـا تطور السياسة في أوروبا والتحسين الذي طرأ على الأسلحة . فأكبت جماعـات من الضباط على دراسة المعركة ، ودراسة « الحالات الحسية » وبذلوا جهودهم في استخراج دروس لتحسين الأنظمة والمذاهب . أمـا الأخطاء التي كانوا يلاحظونها ، فكانوا يحللونها تحليلاً دقيقاً ، ليتجنبوا خطر الوقوع فيهـا ثانية . إلا أن هؤلاء القادة لم يتوصلوا إلى اكتشاف « مذهب » ، فأخذوا يفتشون عن الالتصاق بالواقع وإعداد أنفسهم للعمل .

وكتب « فردي دو فرنوا » في مؤلفه « فن قيادة الجيوش » أن التكتيك لا قيمة له « إلا اذا كان يهيئنا لقيادة الجيوش في الحروب» أو بمقدار ما يساعدنا — في حدود الممكن — على إعداد الأعضاء العمليين (ضباط هيئـة الأركان ،

والمساعدين ، والضباط المرافقين) حتى بطرق أخرى غير الخبرة ، لان الأمر لا يتعلق ، في الحقيقة ، بتقديم بحث جيد في موضوع معين ، بل بمعرفة التصرّف المناسب في حالة معينة » . وكان جميع كتاب العصر متفقين على وجهة النظر هذه . فنادوا بوجوب التطبيق بما يتناسب مع طبيعة الأرض ووضع العدو . واستعاضوا عن وضع مذهب بدراسة الحالة الحسية التاريخية التي ينصح بها مولتك ، وكان أفضل عمل في هذا الموضوع كتاب عن معركة (كانّ) [1] حاول فيه مؤلفه الجنرال « فون شليفن » أن يبرز كيف واجه فردريك الثاني ونابليون ومولتك معركة الإبادة بالتتابع . ونصح « فردي دي فرنوا » ، و « فالكنهوزن » ، بدراسة التاريخ العسكري ، لا لاستخراج طريقة منه أو مذهب ، بل على النقيض ، كوسيلة لإتمام الخبرة الشخصية بالاطلاع على خبرة الآخرين . وفي هذه الشروط أصبحت الميزة الأساسية التي يجب إنماؤها لدى القائد هي المبادهة . وربما كانوا قد أصروا كثيراً على هذه الناحية . والواقع أننا إذا استعرضنا « مبادهات » القادة سنة ١٨٧٠ ومبادهاتهم في سنة ١٩١٤ نرى أنها كانت ، في الغالب، مخالفة للأوامر الصادرة . وقد سبّب هذا الإفراط في عبادة المبادهة عصيان «فون كلوك» في معركة «المارن» وقد كان لهذا العصيان نتائجه الوخيمة .

وليس في هذا ما يمنع أن يكون النشاط الذهني في الجيش الألماني قد أفضى الى تنظيم هيئة الأركان العامة ، ومهرها بمذهب ممتاز للعمل . فمنذ سنة ١٩٠٨ فكرت «مصلحة الخدمة في الميدان» بنماذج للأوامر أصبحت كلاسيكية فيما بعد وهي تشتمل على العناوين التالية .

– معلومات عن العدو وعن الجوار .
– قرار القائد .
– مهمات مختلف العناصر المرؤوسة .

---

١ – معركة هانيبعل ضد الرّومان سنة ٢١٦ قبل المسيح . (المترجم)

– التنظيم المتعلق بالقطارات والقوافل .
– تسهيل وصول المعلومات وانتقالها .
– مقر القائد المركزي .

إن الأمر يتعلق هنا بنموذج من الأوامر ما زال استعماله مقبولاً في وقتنا الحاضر. وقد تطبق في الجيش الألماني قبل سنة ١٩١٤، في خلال مناورات وتمارين ملاكات عديدة . وكان على الانتقادات ، على طريقة « بيلدنغرومان » ، العزيز على الألمان، أن تثقف الضباط. والواقع أن الأمة الألمانية بكاملها كانت تتوجه ، شيئاً فشيئاً ، نحو الحرب ، توجيهاً ذهنياً . وفي سنة ١٩٠٢ أصدرت هيئة الأركان العامة كرّاساً عن « قوانين الحرب البرية » جاء فيه : « ... إن الحرب – وفقاً لمفهومها الجديد – تنشب في الخط الأول بين الأشخاص المنتسبين إلى الجيوش المتقابلة إنما لا يستطيع أي مواطن ، ولا أي ساكن مدينة محاصرة ، أن يعفي نفسه كلياً من الأعباء ، والتقنين ، والتضحيات والأضرار ، التي هي نتائج طبيعية لحالة الحرب . إن حرباً تقاد بعزيمة لا يمكن أن توجّه فقط ضد العدو المحارب وأجهزته الدفاعية ، بل يجب أن تهدف كذلك الى تخريب موارد العدو المادية والمعنوية ... أما الاعتبارات الانسانية فلا يمكن أن يحسب لها حساب إلا إذا كانت طبيعة الحرب وغايتها تتلاءم معها » .

وهكذا بدأ المذهب العسكري الألماني ، منذ سنة ١٩٠٢ ، يتطور نحو هذا المفهوم الفظ « للحرب الكاملة » الذي نادى به يوماً « لودندورف » ، وقد ساهم فيه المفكرون الألمان مساهمة كبرى . فالضابط « ابن عصره » يلتقط كلام « ترايشك » ، ويتأمل في نظرية الانسان المتفوق ، وبإرادة القوة ، ويقول له « مومسن » : « إن التاريخ ، في زوابعه التي لا تقاوم ، يحطم ويلتهم بدون شفقة الأمم التي لا تملك صلابة الفولاذ ومرونته » . أما «غليوم الثاني» فيردد : « أنتم ملح الأرض » . وأما والحالة هذه فلم يعد باستطاعة الجيش الألماني في بداية القرن العشرين ، إلا أن يكون هجومياً ، وقد قدّم له « شليفن » ، خليفة

مولتك ، مذهباً يتلاءم وهـذه الحالة الفكرية ، فكان ، أي شليفن ، كما يقول فون كوهل ، المدرب الكبير من أجل الحرب العالمية الكبرى ، كما كان كذلك على صعيد تنظيم هيئة الأركان الحديثة ، وعلى صعيد المذهب الدفاعي . وقـد اعتبر أن قيادة جيوش المستقبل الجبارة تتطلب تنظيماً كامـلاً ، فوجب أن تكون الجبهة بكاملها ممثلة على الخرائط في مقر القائد العام الذي عليه أن يصدر الأوامر ، أو أن يستقبلهـا بواسطة السيارات والدراجات النارية ، والوسائل الكهربائية . وهذه الطريقة تسهل قيادة جيوش ضخمة حتى ولو بلغ عددهـا أكثر من مليون جندي . فيجب مضاعفة عدد ضباط هيئة الأركان الذين يُطلب اليهم أن « يكونوا لا أن يظهروا » ، وأن يتفانوا في عملهم .

أما سير العمليات في المستقبل ، فيقوم – بحسب قوله – على توجيه الجيوش الجبارة الحديثه لأجل إبادة العدو . وأما حرب التخريب فتقاد بدون مداراة. إلا أنه على صعيد التنفيذ لا يتفق مـع مولتك في الرأي بالنسبة للحرب على جبهتين ؛ ويرى شليفن حلاً واحداً : إبادة أحد العدوين إبادة تامـة ثم إبادة العدو الآخر . ولقد اقترح تحطيم فرنسا بمعظم الجيوش الألمانية وإبقـاء ثلاث عشرة قطعة فقط ضد روسيا للمناورة والمهاجمة في نقاط مختارة بدقة . ثم عدّل خططه ليواجه ، في نهاية الأمر ، مسألة الدفاع عن بروسيا الشرقية . أما بالنسبة للمعركة ضد فرنسا ، فقد اعتبر أنها لن تكون رابحـة إلا بمناورة جناح ، لتجنب القتال الجبهوي ضد التحصينات ، أضف الى ذلك أن دراسته عن معركـة كان ، وهي المؤلف الرئيسي للفكرة العسكرية ، تنصح بمناورة الجناح . لقد انبهر شليفن ، نوعاً ما ، بموقف هانيبعل الذي استطاع بـ (٥٠٠٠٠) جندي مقابل (٨٠٠٠٠) يقودهم « فارو » أن ينتصر بتمديد جبهته ليتمكن من تأليف كتلتين للمناورة على الجناحين ، لتطويق العدو والقتـال في مؤخرته . إنها المناورة الشهيرة على الخطوط الخارجية في سبيل عمليـة على جناحي العدو ومؤخرته هي التي علـّمها شليفن لجيل كامل من الضباط ، والتي طبقها هو نفسه في مخططه الشهير . والواقع أن تعليمه كان نظرياً وعملياً معاً . فخارجاً عن

الدراسات التاريخية، وعن دراسة معركة كان، بالضبط، نفـّذ مخططه بالتتابع، في خلال الاستطلاع، والتمارين، والمناورات، بمساهمة ضباط هيئة الأركان والقواد المدعوين، في حالة الحرب، الى لعب دور في اتمام الحملة المرتقبة.

إلا أن خلفه الخامل، مع اشتهار اسمه، سيضعف فكرة المناورة ليتجنب المخاطرة التي رضي بها شليفن في الشرق، في تدابيره الأولى على الأقل. ولكن، يبقى هنالك واقع؛ وهو أن شليفن يعتبر المدرب الكبير لقواد وضباط هيئة الأركان في الحرب العالمية الأولى، لأنه أشرك صغار الضباط في التمارين، وجعلهم يساهمون في اتخاذ القرارت المهمة بصورة تعودهم على قيادة الجيوش في المستقبل.

إن مذهبه هو هجومي بحت. لقد نصح أولاً بالقتال في سبيل جمع المعلومات عن العدو، وهو لا يحب الحصون حيث «النقـّابون والمدفعيون يتعرضون لخسائر فادحة، وهم دائماً على غير استعداد»، ولا يقبل بهذا النوع من العمل إلا في حالات محدودة جداً (مثلاً: الدفاع عن الجبهة الشرقية). إلا أن الهجوم بالنسبة اليه، هو في الأساس عملية جناح، لأن الجيوش الضخمة الحديثة ذات العتاد الجبار لا تستطيع أن تبدل الجبهة إلا بعد صعوبات جمة، ووقت طويل جداً، ولهذا يرى شليفن أنه يجب ضغط جناحيها.

ونتيجة لهذه الفكرة اعتنق شليفن مبدأ مولتك القائل بالحشد في ساحة المعركة، هذا المبدأ الذي يؤمن المفاجأة، ويرضى بالمخاطرة التي هي طابع القائد. وبسبب هذه المخاطرة يجب أن يكون العمل سريعاً: إذ إنه يعرّض لأخطار كثيرة، لأن جناح الجيش ومؤخرته يكونان معرضين الى درجة قصوى. فيجب أن يعرف القائد ما يريده بالضبط، وأن يكون حازماً، متحلياً بإرادة صلبة، عازماً على النصر، وأن يكون الجنود أهلاً للعمل بطريقة تقريرية ... ويجب أن يؤخذ العدو بمفاجأة الهجوم ...».

●

وقيّض للجيش الفرنسي الذي كان يجمع شتاته حينئذ ، بعـــد انهزامات كثيرة ، قادة أكفاء خرجوا من صفوفه ، وقد أفسح هؤلاء مجالاً واسعـاً في مذاهبهم للعامل المعنوي في الحرب . وعكف ضباط أكفـــاء على آراء «أردان دو بيك » الذي كان مجهولاً من معاصريه ، وتوسعوا فيها ، واعتنقوها . وقـد أصبح عدد كبير منهم قواداً مشهورين في الحرب العالمية الاولى . ونوّه القومندان « مايار » في كتابــه « عناصر الحرب » بالقوة المعنوية ، مليكة المعارك ، واستخرج الكولونيل « غرانميزون » من مصادر صحيحة جــداً الاستنتاجات المتطرفة ، وقدمها تحت شكل هذا المذهب « هجوم حتى الموت » وهو نوع من أخذ الثـأر على الصعيد المعنوي والانساني ، من الفكرة الدفاعية التي كانت سائدة قبـــل سنة ١٨٧٠ . ولكن هذا المذهب سبّب خسائر فادحة سنة ١٩١٤ في صفوف مشاتنا الذين فاقت شجاعتهم كل وصف .

إن الطريقة التي نادى بها « أردان دو بيك » القائـلة بدراسة وضع وحدة ما في خط النار بشكل حسّي ، ستكون القاعدة الاساسية التي سيرتكز عليها كبار أسياد الجيش الفرنسي في أبحاثهم ، وخاصة « بونـّال » و « فوش » في تحليل معارك سنة ١٨٧٠ تحليلاً مفيداً .

وسنرى ، فيما بعد ، المفاهيم الفرنسية لسنة ١٩١٤ ، التي قوبلت بها المذاهب الألمانية . إنمـــا يجدر بنا قبل ذلك أن نستعرض نظرية فوش في خطوطها العريضة ، سواء للتأثير الشخصي الذي كان لهذا المعـــلم الكبير على النخبة من الضباط الفرنسيين ، أو بسبب عمله في مجرى الحرب العالميـة الأولى ، التي خرج منها المنتصر الأكبر لجيوش الحلفاء . لقد تعمق فوش أولاً في دراسة معـارك نابليون واطلع اطلاعاً كافياً على آراء كلوزويتز وآراء جميع الكتاب في مطلع القرن العشرين . وأخضع ، من جهة ثانية ، حرب سنة ١٨٧٠ وجميع الحروب التي حدثت في عصره لفحص دقيق . لقد كان يقول بالهجوم ، ولكنه مع ذلك تنبأ بحرب الخنادق . ففي المقدمة التي وضعها سنة ١٩١١ لكتابه « مبادىء من

الحرب» يقول: «إن المدافع، أو بكل بساطة، أحد الخصمين الذي يعدل وقتياً، عن القيام بالهجوم يلتجىء الى الأرض ويختبىء فيها... والمناورة الالتفافية ثم التطويقة تبدو، أكثر فأكثر، إنقاذاً للمهاجم. ولما كان المدافع في وقتنا الحاضر يستطيع منعها بسهولة أكثر من الماضي، فإن المهاجم يحاول النجاح بتقوية حركة التطويق. وفي خلال هذا السير على الجناح تكون الجبهة في محنة..» وفي النهاية يرى فوش إقامة تنظيم في الأرض باستخدام موارد التسليح الحديث والتحصين. وان لفي هذا علامة أولية «للسباق نحو البحر» الشهير، الذي تبعته حرب خنادق.

إلا أن فوش، كمعظم معاصريه في فرنسا، لم يرَ المعنى الدقيق لأهمية النار الحديثة. ويروون في هذا الموضوع حجته الشهيرة عن فوج يهاجم فوجاً آخر. يقول فوش اننا ببندقية تطلق طلقة واحدة في الدقيقة يكون لدينا مائة رجل ضد الف رجل، وإذا كان فوجان يهاجمان فيكون لدينا ألفا رجل ضد ألف، أو ألفا قذيفة ضد ألف. أما إذا كنا نملك بندقية تطلق عشر طلقات في الدقيقة، فسنكون دائماً في حالة فوجين يهاجمان فوجاً واحداً، (٢٠٠٠٠) قذيفة ضد (١٠٠٠٠)، فيكون الربح العام (١٠٠٠٠) طلقة لحساب المهاجم. واستنتج فوش أن أهمية النار تنمو بسرعة لصالح الهجوم والواقع أنه إذا كان هنالك خطأ من وجهة النظر الحسابية، فإننا نجد في هذا رد فعل ضد الفكرة الدفاعية لسنة ١٨٧٠، فكرة «الأوضاع الجيدة».

وما عدا هذا الاستخفاف، فإن كتاب فوش «مبادىء الحرب» قد استحق أن يوضع – عن جدارة – بين الكتب الكبرى لتدريس الفكرة العسكرية. لقد حدّد بأسلوب كأسلوب كلوزويتز التربية العسكرية لقواد المستقبل، ووضع التعليم العسكري العالي بين قطبين: المبادىء والحالات الحسية. الأولى هي أبدية: مبدأ توفير القوى، مبدأ حرية العمل، مبدأ حرية وضع القوى، مبدأ السلامة. ويقول فوش: لكي نقدر يجب أن نعرف، والمعرفة وحدها تولّد

اليقين والثقة . ولهذا يهمّ جداً أن نتمكن من « العمل على وجه صحيح بدون أن يكون علينا أن نتحقق » ، أي أن نلتقط الوضع بشكله المحسوس : وهذا ما يعنيه القول الشهير « بمَ يتعلق الأمر ؟ » . إذن يجب أن نعتاد حلّ الحالات الحسية منذ وقت السلم ، بعد أن نطلب الحد الأقصى من التاريخ الذي هو خبرة الآخرين .

وعالج فوش الصفات الأساسية للحرب الحديثة ، فأصر على صفة الحرب القومية التي تأخذ ، انطلاقاً من هذا الواقع ، أبعاد تنازع السلطة . ويقول انه في مثل هذه الظروف تنبغي العودة الى المفهوم المطلق للحرب . ومما لا خلاف فيه أن فوش يشجب نظرية الأنتصارات بدون معارك ، ويذكّر بكلمة نابليون التي قالها سنة ١٨٠٦ : « لا أرغب في شيء رغبتي في معركة كبيرة » ، ثم بكلمة كلوزويتز : « النصر هو ثمن الدم . فيجب اعتناق هذه الوسيلة أو عدم القيام بالحرب » .

وهذه الحرب لن تكون قومية وحسب ، بل انها ستتسم بضربات عنيفة وبواسطة « سير عنيف وسريع » . إن الإعداد لوقت السلم سيكون أمراً هاماً ، أما إذا نشب الخلاف ووقعت الواقعة فيجب أن تكون ديناميكياً للسير بالجنود وجمعهم من أجل المعركة ، وتنفيذها . والصفات نفسها هي ضرورية ضد عدو يتحرك ، فيجب اكتشافه والاطلاع على أحواله ، وتعيينه . فعلى القائد أن يداور بقواته ، لأنه من الضروري أن يتقدم الى المعركة بمعظم جنوده ، ويجب كذلك أن يناور بأقسام عديدة لكي يبقي على التشتت لدى العدو .

وفي فصل مخصص لتوفير القوى ، وبعد أن يذكّرنا فوش بالمذاهب والأمثلة التاريخية ، يحاول تطبيق هذا المبدأ ، بنوع خاص ، على مراكز المقدمة ، وعلى نقاط الارتكاز في الحرب المقبلة . فهو يوضح ، مثلاً ، أن فوجاً من المشاة مؤلفاً من (٤٠٠٠) جندي ، أربع سرايا منه تقوم بالحراسة في الاتجاهات الخطرة ، و (٣٠٠٠) جندي يشكلون الاحتياط ، يستطيع أن يعمل على النقطة المهاجَمة

بأحتياطه وبسرية واحدة ، أي ما مجموعه (٣٢٥٠) جندي . إن تعليم فوش، كما نرى ، ينحدر بالمناسبة ، الى المستويات الصغيرة التي يجب أن تلعب دورها في خرب المجموعات الهائلة التي ستكونها الخصومات الوشيكة .

أما في ما يختص بقيادة هذه الأعداد الكبيرة من الرجال الذين حشدوا مجموعات هائلة ومراكز أمامية للقيام بعمل مشترك، فلا مفر لهم جميعاً من طاعة ذهنية كبرى ، وعلى كل قائد أن يكون واعياً فكرة من هو أعلى منه ، ويجب أن يستلهم الأوامر التي تلقاها قبل أن يوجه أوامره الى مرؤوسيه . والى هذه الطاعة الذهنية يعود فوش مرات عديدة . وهي تقوم على أن تكون المرؤوس نظرة صائبة عن الغاية التي يسعى رئيسه الى تحقيقها .

إلا أن هذه الطاعة الذهنية تجرّ الى نتيجة هي المبادهة ، أي عمل المرؤوس الشخصي ، على أن لا ينحرف هذا العمل عن الخط الذي يريده رئيسه الأعلى الذي يؤمن له حرية العمل في هذا الخصوص .

وبعبارة أخرى ، ينبغي لكل قائد أن يكون جديراً بالفهم والتنسيق لكي يطيع فيعمل بحيطة للتمكن من التدخل من أجل الغاية التي عينتها الدرجة الأعلى في القيادة . ومفهوم الحيطة هذا ، وقد دُرس خصوصاً بواسطة الأمثلة المستوحاة من الحرب الفرنسية الألمانية ، قد تطوّر تطوراً كبيراً في تعليم فوش الذي استشف – ولنستعمل تعبيراً حديثاً – « خطة » حقيقية للسير نحو العدو بأمان ، بدلالة العناصر التالية :

– الوقت اللازم لانتقال العناصر الصديقة .
– الوقت اللازم لانتقال العدو .
– من حيث : نقطة الالتقاء المرجحة بين العدو والمقدمة .
– قدرة المقدمة على الصمود .

أما عمل المقدمة فقد دُرس في جميع مراحله المختلفة :
١ً – استطلاع أحوال العدو .

٢ً – تغطية استعدادات تمركز الجيوش (السير ، التجمع ، الانتشار) .
٣ً – وضع اليد على العدو ويتضمن مرحلتين :
– تنظيم نقاط الارتكاز للتمكن من استمرار المقاومة .
– وضع اليد بحصر المعنى (الهجوم ، وخصوصاً على الأماكن البارزة أو على أحد الجناحين) .

ولإتمام المناورة ينصح فوش – كما رأينا – بالمعركة الحاسمة : « القتال من أجل الغلبة » .

ولكن العنصر المعنوي يتدخل كثيراً في المعركة لأنه النضال بين إرادتين . أما في ما يختص بالنصر ، فإنه يكرّس « التفوق المعنوي لدى المنتصر والانحطاط المعنوي لدى المغلوب». فيجب ، في ما يتعلق بهذه الناحية أن يكون للقائد هذا العنصر المعنوي الذي هو موهبة القيادة : « ليست الفرق الرومانية هي التي اجتاحت بلاد الغال ، بل قيصر » . بهذا يذكرنا فوش مستشهداً بنابليون . فالنصر إذن مسألة قيادة ومسألة معنوية . ولكي تفوز به يجب تحطيم معنويات العدو . ويعين فوش ، من أجل هذه الغاية ، وسيلة أولية هي المفاجأة : « أن تفاجىء هي أن تحطم عن قرب ، بالعدد وبالوقت ، وبدون هذا يكون للعدو إمكان الرد على الهجوم ، وإمكان إحضار احتياطه » . والمفاجأة الكاملة بالنسبة الى فوش هي مبدأ توفير القوى كما فهمه نابليون : « أن تكون الأقوى في نقطة معينة وفي وقت معين » .

ويقابل هذه المعركة الحاسمة التي تشن فجأة مع الحد الأقصى من الوسائل ، وفي الوقت المناسب ، المعركة « المتوازية » ، معركة المرؤوسين الغامضة التي تنشب طوال الجبهة . وهذا النوع من القتال يعتبره فوش أقل قيمة . إنها معركة الإفناء . ويستنتج فوش أن الميكانيك وعلم النفس يقودان الى ما يسميه «المعركة – المناورة» التي هي أفضل أنواع المعارك المرتكزة على عمل الاحتياط، هذا الدبوس الذي يجب أن ينتزع النصر .

والخلاصة ان هذه النبذة المختصرة تجعلنا نتفهم اتساع تعاليم فوش الذي يطبق معرفة المبادىء الخالدة للحرب الدائمة على الشروط الحسية للخصومات المحدقة . وهذه الأمثولات المأخوذة، في آن واحد ، من مؤلفات كبار المفكرين العسكريين ومن دراسة المعارك الحديثة قد أثبتت صحتهـا في ساحة المعركة ، ما عدا الخطأ الذي أشرنا اليه عن أهمية النار . وكان لكاتبها ، وهذا مـا ندر حدوثه في التاريخ، امتياز تطبيقها في ساحة المعركة ، على صعيد خطة التحالف، ورؤية النصر يكرس صحة تعليمه . ويعود الفضل إلى فوش ، وإلى مجموعة من الكتاب النوابغ في أن بدأ الجيش الفرنسي حرب سنة ١٩١٤ بجيش تقوده نخبة من الضباط مكنته من مجابهة القوات الألمانية بنجاح ، هذه القوات التي كان يقودهـا ضباط نشأوا هم أيضاً في مدرسة نوابغ صنفوا بين كبار المفكرين العسكريين الحديثين .

٧

تطور المذاهب العسكرية
في أثناء حرب ١٩١٤ ــ ١٩١٨

من وجهة النظر الاستراتيجية تكفي الإشارة إلى أن الخصمين استلهما مذهب نابليون في خططهما الحربية . ولكن كلاً منهما اعتمد مظهراً واحداً من هذا المذهب . أما الألمان فقد تبنوا عملية الوضع في ساحة المعركة ، هذه العملية التي كان الامبراطور يحاول بها الوصول إلى أعدائه بمناورة جناح ، ثم يخلق « حدثه » الشهير ، فيشن الهجوم على النقطة التقريرية .

ومن هاتين المرحلتين المتتابعتين اهتمت الخطة الألمانية ، فقط بمرحلة الالتفاف ، التي هي الميزة الأساسية لخطة شليفن ، والتي اعتمدها كذلك القائد مولتك ، ولكن مع جناح سيار مصغر تصغيراً واضحاً . أما في فرنسا ، فعلى العكس ، فقد رأت الخطة الشهيرة (١٧) ، التي هي كذلك هجومية ، اعتماد الخرق الجبهي : « إن غاية القائد العام هي أن ينقل الى الأمام كل قوة متجمعة . وسوف يتمثل هذا الهجوم تحت شكل عمليتين ، إحداها على اليمين في الأراضي الواقعة بين غابات الـ « فوج » والـ « موزيل » ، وعلى مقربة من مصب نهر « تول » ، والثانية على اليسار ، شمالي خط فردان ــ ميتز ، وقد كانت تصل بين

هاتين العمليتين قوات تعمل في أعالي نهر الـ « موز » وفي مقاطعة ويفر .

وبالجملة ، إذا كانت الخطة (١٧) ترتكز على الهجوم الاستراتيجي ، كالخطة الألمانية ، فإنها تتميز عنها بحدس هجوم جبهي ، على اتجاهين مختلفين ، من أجل خرق تنظيم العدو المفترض .

لقد دخل الخصمان الحرب بمفاهيم استراتيجة ، وطبّقا في حقل التكتيك مذاهب متناقضة كل المناقضة . فالجيش الفرنسي سنة ١٩١٤ كان قبل كل شيء جيشاً من المشاة . وعبثاً نادت بعض العقول المستنيرة ، التي اكتشفت أهمية النار في المعركة الحديثة بوجوب إنشاء مدفعية ثقيلة شبيهة بالمدفعية الألمانية .

وفي فرنسا يؤمنون كثيراً بالقوى المعنوية التي لا بد أن تكون نتيجتها النهائية نصراً ينتزع بهجوم يشن بالسلاح الأبيض : فجندي سنة ١٩١٤ هو ، خصوصاً ، المقاتل بالحربة . والواقع أنه على الـ (١٧٠٠٠) جندي في فرقة المشاة كان (١٣٣٠٠) منهم جنوداً راجلين . فغاية المناورة هي الصدمة التي يحصل عليها بعد تقدم سريع مع فتح النار في مئات الأمتار الأخيرة ، تقوم به « السلسلة » فقط . وهذه النيران تكون في وقت واحد متأخرة وبدون عمق .

أما الخيالة الممثلة في عشر فرق ، وكذلك بفوج في كل فيلق معباً ، فقد احتفظت باندفاعها التقليدي ، فهي تهاجم على الخيل ، وبالسلاح الأبيض كما هو معروف .

وأخيراً ، ودائماً في الخط نفسه ، كانت المدفعية ما زالت تعتبر سلاح تكملة مهمتها الوحيدة مساندة هجوم المشاة . فهي تطلق إذن إلى مسافات قريبة لا تبلغ الـ « ٤٠٠٠ » متر ، ولم تكن قد تنبأت بالمدفعية المعاكسة المنظمة . فكانت تعمل ، بوجه عام ، على جبهات ، ولكن بدون تركيز . والمدفعي الممتاز هو قائد البطارية ، ينفذ طلقات متتابعة ، ولكنها محكمة إحكاماً فنياً . وانطلاقاً من هذا الواقع ، كان في الفرقة كقائد للمدفعية الكولونيل قائد فوج الـ « ٧٥ » . أما المدفعية الثقيلة فلم تكن موجودة إلا على مستوى الجيش.

إن هذا المفهوم لاستعمال الأسلحة المختلفة هو نتيجـة المذهب الهجومي حتى الإبادة . وهذا المذهب الذي لم تكن تنقصه الجرأة كان على جهل فاضح بأهمية عامل النار ولم يكن قد أدرك هذه الأهمية سوى بعض الأشخـاص وحسب ، (دوبينه – بيتان) ، فكان لا مفرّ من أن تُفسَّر هذه الأفكار بجزرة ١٩١٤ تجاه عدو ممهور بقوة نارية عظيمة كانت هجمات مشاتنا البطوليـة ضده تفشل ساعة انطلاقها .

ولقد كانت هذه الهجمات أكثر فتكاً بمقدار ما كان المذهب الألماني يقوم ، بالضبط ، على انتظار الهجوم الفرنسي بقدم ثابتة ، ثم تحطيمـه بنيران المشاة والمدفعية ، وكانت هذه النيران تعتبر كثيفة بالنسبة الى العصر .

هكذا كانت بداية حرب سنة ١٩١٤ التي تطورت الأفكار ، في خلالهـا ، بنوع خاص . ففي بادىء الأمر أبرزت المعارك الأولى ، بقسوة ، أهميـة نيران المشاة والمدفعية . فنتج عن هذا ضرورة تخفيف الجنود الرجّالة تخفيضاً كبيراً ، وصار ينبغي تجنب التشكيلات الكثيفة الضخمـة مهما كان الثمن ، والتسلح بسلاح أوتوماتيكي . وفضلاً عن ذلك ، ما لبث تنسيق أفضل بـين مختلف الأسلحة ، وخاصة بـين المشاة والمدفعية أن فرض نفسه على العقول . وكانت المدفعية لا تستطيع أن تعمل كمجموع ، فلم تشترك في بدء الأمر إلا بطلقات بطارياتها ، ولهذا كانت مساندتها جزئية . ومنذ الأشهر الأولى برزت ضرورة إعداد المدفعية ، وكان الجنرال « روفي » قد نادى بذلك قبل الحرب . وقد أوصى بعض القادة (دوباي وكاستلنو) باستعمال المدفعية المعاكسة ضد المدفعية الثقيلة بالضبط . إلا أن المعدات – والحق يقال – كانت تنقص الجيش الفرنسي الذي اضطر الى الاستعانة بمدافع الأماكن المحصنة (٩٠ ، الخ) .

وأخيراً كان إشراك الطيران الذي لم يستعمل للاستطلاع فحسب ، بـل تحوّل بعد قليل الى إلقاء المقذوفات ، وقد أثبت أنه جليل الفائدة .

وهكذا، وبالتدريج، من غداة معركة المارن في نهاية سنة ١٩١٨ أخذ يُبنى،

شيئاً فشيئاً، مفهوم جديد يوافق الشكل الجديد للحرب، ويُنفَّذ على مرحلتين:

– احتلال موقع العدو .

– التقدم في ما وراء هذا الموقع .

بيد أنه بوجود جبهة دائمة ، محتلَّة في الواقع دفاعياً ، فشلت بالتتابع محاولات الخرق العديدة التي قام بها الحلفاء ، لأن السلطات المركزية كانت تفتش عن التقرير في الجبهة الشرقية . ففي بدء الأمر كانت هذه المحاولات تتم بهجوم تقوم به الأفواج ، ثم بوسائل متزايدة ، وبالمدفعية التي كان مرماها يزداد أكثر فأكثر (تخريب المواقع الدفاعية الثانوية بنوع خاص) ، ولكنها لم تؤدِّ إلا إلى نجاحات محلية ، لأنها كانت تجري غالباً على جبهات ضيقة جداً ، أو بسبب النقص في الاستغلال . وكان سير المعركة ، بسبب الوسائل المستعملة ، المتنوعة والمتعددة ، وكذلك بسبب النقص في وسائل المخابرات كثيراً ما يغيب عن عمل القيادة .

وكان تقدم العناصر الصديقة بطيئاً جداً في الغالب ، فتمكن العدو من تسيير احتياطه . ومنذ نهاية سنة ١٩١٥ اعتنق الحلفاء المبادىء التالية :

– ضرورة الوسائل المتزايدة (سلاح المرافقة ، المدفعية ، الغاز) .

– استغلال هذه الوسائل استغلالاً كاملاً (إن الألمان لم يندفعوا كثيراً في استعمال الغاز ولهذا لم يُتوصل الى اتخاذ قرار بشأنه) .

– هجمات لشغل العدو ، وأعمال تقوم بها المدفعية لجذب احتياط العدو واستنزافه .

– تجميع الوسائل للهجوم الحاسم الذي يقاد بمجموعه بجهود متتابعة ، وبطريقة منظمة ، ولكن سريعة ، للتمكن من الفتح بعد خرق الوضع الأول .

هذه هي المبادىء التي ارتكزت على أسسها الأعمال الهجومية الكبرى ، الفرنسية البريطانية ، ابتداء من سنة ١٩١٦ ، وقد استمرت هذه المعركة العظيمة حتى أواسط سنة ١٩١٧ . وكان الحلفاء يقودونها هجومياً ، ودفاعياً من

قبل الألمان. والواقع أن معركة فردان الوقائية التي شنها الألمان أوقفت مؤقتاً هجوم الحلفاء ، وقد اتخذت طوال أشهر عديدة طابع معركة إفناء بالنسبة للعدوين الراغبين في احتلال هذا المكان الحصين .

ثم كانت معركة « السوم » وعودة الحلفاء الى الهجوم ، وقد فترت هذه المعركة عند اقتراب شتاء سنة ١٩١٦، وعاودت نشاطها في ربيع سنة ١٩١٧ ، وكان الألمان قد توزعوا في العمق بانتظار الهجوم على مراكز متتابعة مؤلفة من جزر مقاومة مجهزة بأسلحة أوتوماتيكية .

وكان مذهب الحلفاء ما زال مذهب سنة ١٩١٥ ، ما عدا ما يتعلق باستعمال الدبابات لمساندة المشاة . إلا أن التحالف كان قد صمم على استعمال وسائل متزايدة .

وهدف الجنرال « نيفيل » الى أكثر من تغيير « نقاط التطبيق ومحاور الجهد » في خطة جوفر ، وقصد إعطاء الهجوم إيقاعاً سريعاً في مراحل ثلاث :

- تصديع جبهة العدو بواسطة المدفعية .
- اختراق الجبهة .
- مناورة استغلالية .

إن هذا الهجوم المتأخر ، الذي سبقته معركة إفناء استمرت اسبوعين ، قد أحرز بعض النجاح الجزئي . ولكنه فشل بمجموعه فشلا ذريعاً بسبب المناورة الألمانية، أي : الانسحاب بين نهر الواز وأرّاس ، حيث طُبّق مذهب الأرض المحروقة ، والمزروعة بالعوائق . فالمعركة إذن كانت خاسرة تقديرياً عندما توقفت من جراء خلاف وقع في ٢٣ نيسان بين الحكومة الفرنسية والقائد العام .

وبعد وقف الهجوم كانت النتائج المكتسبة في الجبهة الغربية هي التالية :

- إن الهجوم يتطلب وسائل ضخمة ، لأن الزحمة والثقل يجعلان عمل لقيادة معقداً جداً .

– إن بدء العمل يتطلب مهلاً طويلة من الاستعداد والتنفيذ .
– إن التمركز الذي يتبعه استعداد طويل يجعل تحقيق المباغتة أمراً صعباً.
– تستطيع القيادة أن تهيىء المعركة ، ولكنها بسبب تعقيدها نفسه ، تقودها بصعوبة عندما تبدأ العملية .
– ارتفاع الدفاع الى مستوى المناسبات بسبب استعمال وسائل متعادلة بشكل محسوس [1] . فيبقى الدفاع إذن العملية القوية طالما لم يتحقق للمهاجم تفوّق محطّم .

وعلى ضوء هذه الملاحظات سيُهيّأ هجوم الحلفاء لسنة ١٩١٨ ، مرتكزاً على الحصول سلفاً على التفوق المادي ، المعترف به والضروري . ومن جهة أخرى أخذ الألمان ، وقد تحرروا من همومهم في روسيا ، يهيئون « هجومهم من أجل السلام » .

وإذ لم يكن الحلفاء على استعداد مادي كاف فقد قرروا – من أجل تنفيذ عملياتهم الحاسمة – الانتظار إلى أن يتم صنع الأسلحة وتُشكل الوحدات الضرورية للحصول على التفوق العددي في الوسائل المعروفة التي لا يُستغنى عنها. إلا انهم كانوا يواجهون بعض العمليات الجزئية على سبيل التدريب والتأكد من صحة المذهب . والواقع ان عمليات فردان (رقم ٣٠٤ ، مورتوم ، وضفة اللّوا) وعمليات ماليزون أثبتت صحة المذهب المعتمد ، أي : تصديع صفوف العدو بضربات قوية ومستمرة ، ثم تقدّم منسّق ، مع نقل متتابع لوسائل المشاة والمدفعية .

وكان البريطانيون ، من جهتهم ، يختبرون بنجاح إدخال الدبابات بكميات كبيرة لتحلّ ، بقدر معلوم ، محل المدفعية ؛ وكانت المفاجأة كاملة ، وكان يمكن أن تؤدي الى احتلال كاليه لو لم تنقذ الوضع فرقة ألمانية كانت قد وصلت من روسيا .

---

١ – إن توقيع معاهدة برست – ليتوسك سمح لألمانيا بأن تعيد من روسيا وسائل مهمة .

أما الألمان فقد طبقوا في الجبهة الروسية وفي الجبهة الايطالية طريقة سوف يطبقونها في فرنسا. وقد كانت هذه الطريقة – على النقيض من المذهب الفرنسي – ترتكز على المباغتة :

– تركيز الوحدات والأعتدة في اللحظة الأخيرة .
– الاحتفاظ بالسرية بواسطة انضباط كامل .
– إعداد قصير وعنيف يعمل بالمباغتة ، ويهدف فقط الى شل حركة العدو بفضل استعمال كثيف للغازات والداخنات .
– هجوم خلال ستائر من الدخان مع اجتياز مراكز من ممرات مختارة بدقة .

هذه هي المفاهيم التي كانت سائدة في سنة ١٩١٨ . ويجب أن نضيف إلى ذلك أنه لما كان من المتعذر البدء بشن الهجوم قبل جمع الوسائل الضرورية ، بما فيها وسائل الجيش الأميركي الجديد ، فقد حدد القائد الفرنسي العام ، الجنرال بيتان ، التكتيك الذي يجب أن يطبق بما يلي : « عوضاً عن أن نكرّس مجهودنا كله للإبقاء على سلامة صفوفنا الأولى ، فلن نستعمل لحمايتها إلا الوسائل الضرورية ، وذلك في سبيل تأمين نتيجة جيدة من التنظيمات القائمة ، وفي سبيل تمركز القسم الأكبر في الخطوط الثانية . وسيكون العنصر الأساسي في ساحة المعركة ، من الآن فصاعداً ، اتخاذ وضع الصمود » . وقبل هذا ، ينبغي للعناصر المتمركزة أن تؤمن عملية تأخير ، فتحدث سلسلة من المعارك هدفها الفصل بين ترتيب المشاة والمدفعية لدى الأعداء عند احتكاكها بوضع الصمود .

وكان لودندورف من مؤيدي المناورة التطويقية التي استعملت بنجاح في معركة تاننبرغ ، ولكنه لم يملك الوسائل لتطبيق استراتيجيته ، فحاول في الغرب ، كما كان يحدث أحياناً في روسيا ، أن يقضي على عدوه بوسائل أولية غير كافية (٢٠٠ فرقة ضد ١٨٠) وغير مؤهلة كذلك (فقط ٥٦ فرقة مجهّزة للهجوم) .

وفضلا عن ذلك، فقد إستعمل كل قواه المتفرغة منذ بداية الهجوم الحاسم ، ولكنه لم يثبت سلفاً احتياطي الحلفاء. فحقق الهجومان الأولان جيوباً عميقة، ولكن العدو لم يستطع التوغل فيها إلى درجة إنهاك احتياطنا الذي تدخل شيئاً فشيئاً . أما الهجوم الثالث فقد فشل منذ بدايته لأن الحلفاء استعملوا الطريقة التي نصحت بها القيادة الفرنسية : إحداث الفراغ في الموضع الأول لتحطيم هجوم العدو في الموضع الثاني .

وأوشكت موارد لودندورف أن تنفذ، فتخلّى عن المبادهة في العمليات ، وفي ١٨ تموز تمكن الحلفاء من شن هجومهم المعاكس ، وكان تمهيداً للهجوم العام الذي قادوه بتفوق محطّمٍ في الوسائل . وقد تنفّذت العمليات على مراحل ثلاث :

– التقليل من النتوءات .
– اختراق خط هندنبورغ .
– اختراق الخطوط الثانية .

أما الهجوم الكبير على اللورين، فقد سبقه طلب الهدنة ، لأن العدو لم يكن يملك الوسائل لصده .

وبالإجمال ، فإن « الصلح » لم يصل بالمناورة الكبيرة المهيّأة الى نهايتها القصوى ، فالحرب قد انتهت إذن على ذكرى حرب تمركز متبوعة بعمليات اختراق كبرى تُقاد بوسائل متفوقة محطّمة . فيغدو من الصعب ، بعد ذلك ، أن ينسى المنتصرون في مراحل الحرب الأخيرة بعض المبادىء الأساسيّة الصالحة لحرب الاستقرار فقط ، وخاصة في عمليات الجبهة المتصلة .

بيد أنه في حقل القيادة العليا للعمليات ، فإن أزمات سنة ١٩١٨ تكون قد أبرزت ، بنوع خاص ، ضرورة القيادة الموحدة على مسرح التحالف . ومن المفيد أن نتابع تطور الأفكار في هذا الموضوع خلال الحرب العالمية الأولى . فقد نجح الجنرال جوفر بكل ما لمنتصر المارن من سلطة ، أثناء قيادته ، في

الإبقاء على التوافق بين الفرنسيين والبريطانيين . وبعد تخليه عن القيادة أوجد الحلفاء مجلساً أعلى للحرب ، إلا أن الجنرال بيتان والمارشال دوغلاس هيغ كانا يملكان الحرية الكاملة في العمل . فنظما « بطريقة حبية » التلاحم الضروري بين الجيوش ، وتوزعا الجبهة مطبقين خطة مساندة متبادلة تجيز إمكان التدخل الطارىء لجيش فرنسي في القطاع البريطاني .

ثم ان المجلس الأعلى للحرب قرر تشكيل احتياط حليف . ولكن ، بعد شن الهجوم الألماني في آذار سنة ١٩١٨ ، وجب إيجاد قيادة موحدة . وهذا ما سيتحقق تدريجياً . وفي أقل من شهر عيّن الجنرال فوش قائداً أعلى لجيوش الحلفاء في فرنسا بعد أن كان قد كُلّف إثر مؤتمر « دولنز » بتنسيق العمل بين جيوش الحلفاء في الجبهة الغربية ، ثم بإدارة العمليات الاستراتيجية .

وهكذا أصبح بإمكان هذا القائد البارز أن يقود المعركة الاستراتيجية طالباً من كلٍّ من الحلفاء أن يساهم مساهمة فعالة لم تكن معروفة في الأحلاف الماضية . وما انتصار سنة ١٩١٨ ، في الخلاصة ، إلا انتصار القيادة الموحدة . هذه هي الأمثولة النادرة التي احتفظت بها الأمم التي قاست هذا الاختبار الدامي في الحرب العالمية الأولى ، الى جانب النتائج الخاطئة المستمدة سواءً من حرب التمركز أم من عمليات الاختراق سنة ١٩١٨ .

وبالمقابل ، فقد انتهت هذه الحرب دون أن تُبرز مذهباً عاماً لاستعمال الدبابات الكثيف ، وكذلك في ما يتعلق بالطيران . والواقع أن هذين السلاحين قد اعتبرا خصوصاً كسلاحين للمساندة وللتتمة . وأخيراً فقد اختفى عن مسرح العمليات الخارجية درس كبير : هو ثورة العالم العربي التي قادها مغامر عبقري. فقد أظهر هذا القائد ، الكولونيل لورنس ، في مذكراته القيّمة التي تؤلف عمله الأدبي الشهير « أعمدة الحكمة السبعة » ، أن ميكانيكية الحرب الكثيرة الدقة والتنظيم « على طريقة فوش » لا قيمة لها على الإطلاق في ساحات المعارك خارج اوروبا ؛ وانه ، على النقيض ، يمكن الحصول على نجاحات كبيرة ، عسكرية

وسياسية، إذا ما اتبعت في الحرب طريقة دمج العمليات الحربية بثورة السكان، وعملياً مع تخريبٍ على مؤخرة العدو. وبالاختصار، لقد قدم الكولونيل لورنس نظرية قيمة عن حرب الشرق الأوسط، التي هي في وقت واحد، حرب نفسية وحرب ايديولوجية، مع تطبيق للهجوم التكتيكي والاستراتيجي الواسع النطاق، ومع ذلك فقد شُنت خارجاً عن قواعد الحرب العالمية وقد تكللت، مع ذلك، بنجاحٍ لا ينكر. ومن المؤسف ان المشرّعين من الحلفاء لم يستخلصوا من هذه الحرب البارعة، في نشوة انتصار اوروبا، استنتاجات للمستقبل، وبنوع خاص في حقل الحرب النفسية، وفي حقل العمليات الخفية. فقد كان سمح ذلك للحلفاء السابقين ألا يُؤخذوا على حينَ غرة، فيما بعد، في افريقيا وفي آسيا، بسبب الاستيقاظ التلقائي أو المسبّب للشعوب المستعمرة.

٨ ما بين الحربين

بعد سنة ١٩١٨ أخذ الجيش الألماني يتساءل عن أسباب هزيمته . ولقد شاعت - بالتأكيد - دعاية ناجحة تقول بأنه طعن في الظهر . إلا أن التقنيين أنفسهم ، وهم يستنتجون أن جيوش لودندورف وهندنبورغ قد سقطت تحت ضخامة العدد ، كانت لهم مآخذ على المذاهب ، فوضعوا بيانات مفصّلة بالأخطاء المرتكبة ، سواءً في حقل التنظيم أم في حقل إدارة العمليات . ولاحظوا أن مفاهيم أتباع كلوزويتز عن « أضرار الحرب » قد كرّستها حرب سنة ١٩١٤ - ١٩١٨ ، وان قواد سنة ١٩١٤ قد خسروا معركة المارن لأنهم تخلوا عن هذه المفاهيم . وكذلك ، فالمعركة التي نصح بها لودندورف سنة ١٩١٧ كانت ذات قيمة لا تنكر . ووحدها بعض الأخطاء في التنفيذ هي التي خطّأت نتائج هذا المذهب الذي يُنسب فشله إلى عدم الكفاية في تجهيزات سنة ١٩١٨ . أما والحالة هذه فقد أعلن فون سيكت وفريتش ، بعد لودندورف ، أنهما من أتباع شليفن ، وبقي من جراء ذلك ، حتى الحرب العالمية الثانية ، استمرارٌ ملحوظ للفكرة الألمانية الحديثة ، أي المثابرة على تطبيق تعاليم المذاهب الكلاسيكية الكبرى

في القرن التاسع عشر ، على الظروف الخاصة لحرب الساعة .

وقد أبرزت دراسة الحرب العالمية الاولى ، أمام عيون الكتّاب الألمان ، أربعة أخطاء أساسية . الأول هو عدم تطبيق الخدمة الإجبارية تطبيقاً كاملاً لأسباب مالية ، بحيث أن الجيش في وقت السلم بدا غير كافٍ من ناحية العدد . ثم إنهم أخطأوا بعدم جمع عناصر فرق الخيالة التي جُمعت فقط في حركة تجنيد سنة ١٩١٤ . وبالجملة فإن قواد ما بعد الحرب قد نسبوا إلى « رايخ » غليوم الثاني بأنه لم يعرف كيف ينشىء ، منذ وقت السلم ، جيشاً كبير العدد . أما الخطآن الباقيان اللذان نسبا إلى الجيش القديم فيتعلقان بالنظام التكتيكي ، أولهما هو المبدأ المطبق سنة ١٩١٦ في الهجوم على منطقة محصّنة ، وأخيراً إهمال الدبابات في أواخر الحرب .

وبانتظار الأخذ بالثأر راح قائد كبير وعالم نفسي يعدّ العدّة لتأليف قوة عسكرية جديدة . وفي مدرسته ما زال مذهب شليفن يوحي نظام الاستعمال التكتيكي للوحدات الكبيرة : « قيادة ومعركة الجيوش المختلطة » . والحق يقال أن فون ستيك قد أولى الجيش المحترف أهمية كبرى . إلا أنه في الوقت نفسه تطورت روحية شعب يناضل من أجل حريته . وأعلن لودندورف في كتابه « الحرب الكاملة » : « نحن بحاجة إلى شعب يستطيع الصمود نفسياً وجسدياً ، ويكون جديراً بأن يبذل ، طوال شهور وسنوات ، طاقات كبرى من الجهد ضد عدو يجب تحطيم « إرادته » ... فالسياسة الكاملة ليست سياسة الحرب وحسب ، بل إنها السياسة العنصرية التي — لكي تكون فعّالة . يجب أن تخلق لها أساساً هو الحياة الاجتماعية بحسب المعرفة العنصرية لله ! » . وإن لودندورف بإصراره على ضرورة وحدة الامة الروحية ، ليتجاوز كلوزويتز وشليفن ، ويبشر بايديولوجية طوّرها التصوف النازي . وقد ساندت هذه الايديولوجية وجهة نظر القادة الألمان في اثناء إعادة تشكيل الجيش . فلم يكن على العسكريين إلا الانتقال إلى التنفيذ ، لأن الشعب الألماني بأجمعه كان يقدم

النذور من أجل إيجاد الآلة الحديثة التي خلقها له هتلر فيما بعد .

وهكذا ، وبدون انتقـــال ، تحوّل الرايخ الجديد إلى جيش ألماني ، أداة للأخذ بالثأر . واقنع بانز مواطنيه بأن الحرب وحدهـا تسمح للشعوب بتقرير مصيرها ، وأن عصر القوة الوشيك سيقود النصر إلى النخبة الألمانية ، الموجّهة نحو الحرب التقريرية ، ضد العدو الرئيسي الذي هو فرنسا .

إلا أن التقرير كان منتظراً من جيش البر الألماني الجديد . أما الطيران ، فستكون رسالته الأساسية المساهمة في المعركة الأرضية، بتقديم المساندة للمشاة والدبابات . وأما الغارات الجوية العميقة والكثيفــــة ، على أرض العدو ، فلم يواجهها أحد ، على الاقل في بداية الحرب. وعلى النقيض، سيكون على الطيران تأمين التغطية للتركيز الارضي وتأمين الحرية لعمل البحرية . وأما في ما يتعلق بالبحرية ، فلم يكن بالامكان إبقاؤهـا في بحر الشمال ، فنصح الاميرال ويجنر ، مستشار هتلر ، بوجوب اختراق الحصار .

وبالإختصار ، فإن التقرير الذي يحصـــل عليه الجيش البري في الاساس ، بمساندة القوى الجوية والبحرية ، سيُفتش عنه بالهجوم ، وسيكون فيه السلاح المدرّع السيد المطلق . ذلك لان ضباط جيش بدون دبابات يكونون قد أبرزوا للوجود ، بصمت ، مذهباً لاستعمال الدبابات غير المذهب القائل بأنهـا وُجدت لتكون تتمة للمشاة .

إن أول مؤلّف عالج موضوع الوحدات الكبرى المدرّعة سيكون «حرب الدبابات» لمؤلفـه الجنرال النمساوي إيمانسبرجه ، وقد اعتبر هذا الكاتب أن معركة سنة ١٩١٨ ، المرتكزة أساساً على إمكانات المدفعية ، كان من سيئاتها أنها تطلّبت استعداداً طويلاً مما جعل الاحتفاظ بالسرية أمراً مستحيـــلاً ، فضلاً عن أن العدو كان بامكانه أن ينجو من ضرباتهـا باخلاء موقعـه الاول (شامبانياني سنة ١٩١٨) ، فيجب اذن أن يعود للمعركة نسقها السريـــع باقتباس التقنية من الطرق القديمة - التي كان الخيالة يتبعونها في حروبهم . إن

الدبابة تملك القوة على التحرك ، وهي عنصر للسرعة والمفاجـأة ، فتستطيع – كما كان الجواد في السابق – أن تجدّد هجماتها . فيسرع المدافع ، وقد أخذ على حين غره إلى إدخال احتياطه ، ولن يبقى له إلا الامـــل بايقاف تقدم المدرعات في موقع جديد . وبالنسبة إلى إيمانسبرجه تتألف معركة الدبابات من ثلاث مراحل :

–إختراق الموقع الاول مع تغلغل إلى مسافة تبلغ ستة أو ثمانية كيلومترات.

– إختراق الموقع الثاني على مسافـــة تقرب ست عشرة كيلومتراً من الموقع الاول .

– ثم استغلال لا يرحم من خلال الثغرات المحدثة .

إن نسق المعركة هذا ، السريـع ، يستفيد من المفاجأة ، لان الدبابات وهي في وضع إنتظار ، لا تندفع إلا في اللحظة الاخيرة . فتهجم على أربع دفعات متتالية ، تحميها المدفعية من الاسلحة المضادة للدبابات ومن البطاريات العدوة. ولكي تُتوج العملية بنجاح هنالك إمكان احتلال الموقع الثاني بمهلة قصيرة حيث تدور العملية الحاسمة .

إن نظرية إيمانسبرجه التي نادت باستغلال سلاح الدبابات لفتت الانظار ، ولكن الجنرال غودريان هو الذي أوضحها نظرياً وعملياً. ونحن نعرف أفكاره من مؤلفه الصغير « علاقة الجيوش المدرعة بغيرها من الاسلحة » ، الذي نشره سنة ١٩٣٧ ، وكان إذْ ذاك قائداً للفرقة المدرعة الثانية . وفي هذا العصر كانت نظريتان تتطاحنان في ما يتعلق بالدبابات . أولاً المفهوم الذي كان معتمداً في فرنسا ، وهو أن المشاة هي السلاح الرئيسي ، وأن السلاح المدرّع والمدفعيـــة يحملان اليها المساندة . وهذا المذهب الذي حاربه الجنرال ديغول فقد كثيراً من أتباعه عشية سنة ١٩٣٩ . وثانيـــاً المفهوم الذي أوصى به الجنرال فولر « أب الدبابات » البريطانية ، الذي كان يعتبر – في ما بين الحربين – أن الدبابات يجب أن تشترك في المعركة كسلاح مستقل عن بقية الاسلحة، ويفضل

أن تعمل على جناحي العدو وفي مؤخرته . وعلى طريقة الخيالة القديمة تستطيع أن تقلب دفاع العدو الذي تذهله المفاجأة رأساً على عقب ، وتتوصل إلى تسلم زمام التقرير .

والواقع أن هذه النظرية تتجاوز الحد نوعاً ما ، ويعتبر «غودريان» بدوره، أن صفات السلاح المدرع ستعطي نتائج باهرة إذا كان استعماله على صلة ببقية الأسلحة . وبحسب رأيه يمكن استعمال الدبابات وفقاً لأربعة وجوه :

- هجوم بالدبابات متبوع بهجوم للمشاة لمساندته .
- هجوم تقوم به المشاة والدبابات في وقت واحد .
- هجوم للمشاة تسانده بقية الأسلحة .
- هجوم للدبابات في اتجاه منحن بنسبة اتجاه المشاة .

وفي جميع الحالات ينصح غودريان بالتعاون بين جميع أنواع الأسلحة المختلفة ، مع أنه مذكور في النظام المتعلق بسلوك ومعارك الأسلحة التي تعمل معاً . وقد أخذ هذا التعاون بين الأسلحة في الجيش الألماني قيمة العقيدة . وقد تضمّن ، بالضبط ، تدخّل القوى الجوية (المطاردة والقصف) ، كمساندة مباشرة للهجوم أو كمساندة غير مباشرة ، باطلاق بعيد المدى .

وكان التدريب في الجيش الألماني يرمي بمجموعه الى تحقيق هذا التعاون بين الأسلحة المختلفة في ساحة المعركة . وعلى هذا وجب إذكاء روح المبادهة لدى المرؤوسين الذين عليهم أن يستلهموا مقاصد القائد الأعلى ، دون أن ينتظروا تسلم الأوامر بالتنفيذ لأنها قد تصل متأخرة جداً . وهكذا نرى قائد فرقة احتياط في الجيش الألماني يقرر على مسؤوليته إشراك فرقته الاحتياطية في المعركة إذا لم تصله أوامر قائده بالاشتراك في الوقت اللازم . لقد كان الألمان يحكمون على ملاكاتهم بنسبة حكمهم على صفات القواد . وقد طوّروا بين الجنود ، الروح الهجومي ، بجميع الوسائل العسكرية والنفسية .

هكذا سيكون الجيش الالماني الذي سيواجه الجيش الفرنسي في سنة

١٩٣٩ . لقد تخلى عن الفكرة القائلة بجيش صغير محترف ، وكان قد نصح بهذا « فون ستيك » ، وأظهر توازناً قوياً في إطار الأمة – الجيش . وقد عرف ، وهو يجدد ، أن يتخلى عن نظرية الجنرال الإيطالي « دوهيه » الذي أراد عشية حرب ١٩١٤ – ١٩١٨ ، التمسك « بدفاع في البر وفي البحر ليشكل كتلة في الجو » .

يجدر بنا أن نتوقف عند هذه النظرية التي – والحق يقال – لم تطبق في أي بلد ، ولكنها نوقشت كثيراً في جميع الجيوش . فقد اقترحت إقفال الحدود الأرضية والشواطئ ، وإطلاق طيران هائل في سماء العدو يقصف ويدمر . وقد طالب « دوهيه » بأسطول جوي مؤلف من ألفي قاذفة قنابل تقوم بهجماتها في النهار لأنه لم يكن يؤمن بالهجوم الليلي . وعلى هذه « الطرادات الجوية » أن تحطم سلفاً طيران العدو ، ثم جميع النقاط الحيوية الاقتصادية والسياسية في أرضه .

لقد نتجت هذه النظرية عن ملاحظة خاطئة : كان « دوهيه » يعتقد أن بامكانه الإثبات أنه أمام دفاع يزداد قوة يوماً عن يوم ليصبح الهجوم ، عملياً ، أمراً مستحيلاً ، بينما تؤمن التحسينات الاخيرة للهجوم الجوي أبعاداً لا تقدر بثمن . إن هذين البرهانين ، والحق يقال ، سيُعترف بخطأهما فيما بعد ، ومن جهة ثانية حالت الصعوبات المالية دون التحقيق المادي للسلاح الجوي الذي نصح به .

ومع ذلك ، فقد كان لدوهيه الفضل في الإشارة الى بعض إمكانات الطيران ، الذي يظهره لنا لا متدخلاً ضد الجيوش في المعركة وحسب ، بل عاملاً في عمق في أرض العدو ، مخرباً أهدافه العسكرية ، خانقاً اقتصاده . وعلى المدى الطويل سيكون للجنرال الإيطالي الفضل في إثارة مفهوم طيران استراتيجي ، هذا الطيران الذي سيحمل ، بلا شك ، الخراب الى العدو ، فيصيبه في نقاطه الحيوية ، وهو ، مع القنبلة الذرية ، سيأخذ أبعاداً وفعالية لا يستطيع «دوهيه»

نفسه أن يتصورها حتى في أكثر أحلامه جرأة .

●

تجاه جيش ألماني يعيد التفكير في مشكلة الحرب ، وقد عرف كيف ينجو من مواقف بعض المجددين المتطرفة ، كيف كان تطور الجيش الفرنسي غداة الحرب العالمية الأولى ؟ الواقع أن فرنسا قد استنزفت في الحرب دماءها ، وتخلت عن المجهود الذي كلفها نصراً غالي الثمن . ذلك لأن الشعب الفرنسي لم يعد يؤمن بالحرب ، والمكلّف يرفض تمويل المشاريع العسكرية الكبرى . فلم يعد هناك ألزاس ولورين لتحريرهما . ووفقاً لهذه الحالة ، كان التجنيد يجري بصورة سيئة ، في جيش يتقاضى أفراده رواتب ضئيلة ، والآراء في الحاجة اليه متضاربة . ولم يتنبه الرأي العام الفرنسي للخطر الذي يتهدده إلا بعد ظهور هتلر ، ولكن رد فعله كان موقفاً دفاعياً أرضته فكرة إقامة خط ماجينو .

ويصف لنا الجنرال ديغول في مذكراته الحربية [1] عقلية الجيش بعد سنة ١٩١٨ ، هذا الجيش الفخور عن حق بانتصاره ، ولكنه محصور في نوع من الجمود هو نتيجة عدم الاستقرار الحكومي ، الذي قضى على كل اندفاع لقوادنا السياسيين في حقل الدفاع الوطني :

« ... إن الهيئة العسكرية التي لا تحثّها الحكومة إلا حثاً مرجرجاً ومتناقضاً ، كانت منغلقة في انقياديتها . وكان الجيش مجمداً في المفاهيم التي كانت سائدة في نهاية الحرب الأخيرة » .

إذن فالمفهوم الذي كان سائداً عندئذٍ في الاستراتيجية الفرنسية هو مفهوم الجبهة الثابتة والمتصلة . وكانت ميكانيكية تجنيدنا نتيجة منطقية لهذه الفكرة الخاطئة التي مضى عليها الزمن . فهو يقوم بتجنيد الحد الأقصى من الفرق ، للاحتفاظ بقطاعات محسوبة بذكاء بنسبة الفرق المتفرغة . وهو ، بالجملة ، جدار الصين على قاعدة وحدات كثيرة عليها أن تؤمن لفرنسا ، بفضل خط ماجينو بنوع خاص ، سلامة أراضيها . وقد توجهت جميع الجهود للعمل في سبيل هذا

١ – أقرأ له في منشورات عويدات: النفير، الوحدة، الخلاص، مذكرات الأمل. الناشر

المفهوم المشؤوم : الاسمنت في تحصين الأمكنة ، وحتى الدبابات كان يُنظر اليها كسلاح لرد الهجوم . والحق يقال ، كما يشير الى ذلك الجنرال ديغول بقوله ، ان هذه العقلية تشبه كثيراً الحالة النفسية الفرنسية في ذلك الوقت ، والنظام السياسي في ذلك العصر ؛ المميّز بضعف السلطة والخلاف الداخلي في الأمة : « كان الجميع يتسابقون ليجعلوا من السلبية مبدأ لدفاعنا الوطني نفسه » . وهذه الرؤية الاعتدالية للأشياء لا يمكن إلا أن تولّد لدى المانيا ارادة التوسع على حساب جيرانها الضعفاء : مقاطعة السار ،بلاد رينانيا ،والنمسا ،وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا .

وإزاء هذا الوضع الفكري جعل الجنرال ديغول من نفسه بطلاً لسياسة عسكرية أكثر نشاطاً . ففي كتابه « نحو جيش محترف » ، اقترح خلق «جيش للمناورة وللمصادمة الميكانيكية ، مدرّع ، مؤلف من مجموعة من النخبة ، تضاف اليه الوحدات التي يعبئها النفير العام» . وبعد أن نبّه الى هجوم ألماني على باريس عن طريق بلجيكا ، أوصى بالاحتفاظ بقسمٍ من الجيش في حالة التيقظ بشكل يستطيع معه التحرك عند أول استنفار . ومن أجل ذلك نصح الكولونيل ديغول بإيجاد « عنصرٍ للمناورة جدير بالعمل بدون مهلة ، أي دائم ، مجرّب على السلاح » ، خارج مجموعة الفرق المعبّأة البطيئة التحرك . وأطنب في مدح تفوق نخبة مجهزة بأعتدة ممتازة تستفيد الى أقصى حد من محركاتها على المجموعة الضخمة .

أضف الى ذلك ان السياسة الواعية تفرض على فرنسا أن تعمل خارج حدودها : « كم دفعنا من الدماء والدموع ثمن خطأ الامبراطورية الثانية التي سمحت بوقوع معركة « سادوا » دون أن تنقل السلاح الى نهر الرين ؟ فينبغي إذن أن نكون مستعدين للعمل في الخارج ، في كل وقت ، وفي كل مناسبة ، مما يقتضي وجود قوة تكون في حالة التأهب المباشر : « أداة للمناورة ، وقائية ورادعة ... » . وبالنتيجة طالب الجنرال ديغول بست فرقٍ قتال ، وفرقة خفيفة ، مجهزة بمحركات آلية ، ومدرعة في قسمٍ منها .

أما كل فرقة قتال فيجب أن تتضمن :

– لواء مدرع من فوجين (أحدهمـا من الدبابات الثقيلة والآخر من الدبابات المتوسطة) ، وكتيبة من الدبابات الخفيفة .

– لواء المشاة (فوجان وكتيبـة من القناصة ينقلون على عربات الى جميع الميادين) .

– لواء من المدفعية (فوج من المدافع الطويلة ، وفوج من المدافع القصيرة ، ومجموعة من المدافع المضادة للطائرات) .

– فوج استطلاع .

– كتيبة هندسة .

– كتيبة مواصلات .

– كتيبة تموين .

– خدمات .

وأما الفرقة الخفيفة فيجب أن تكون مجهزة بآليات أكثر سرعة . وأخيراً يجب التفكير بعناصر احتياط عام وطيران قوي (مجموعة لكل فرقـــة) . وأفراد هذا الجيش من النخبة (١٠٠٠٠٠) رجل ، يجب أن يكونوا فقط من المتطوعين الذين قضوا ست سنوات في الخدمة . وهذا الجيش ، المعتاد المناورة ، يستطيع القيام بالهجوم المفاجىء ، في ليـلة واحدة ، بـ (٣٠٠٠) دبابة ، على دفعات متعددة ، على جبهة معدل طولها خمسون كيلومتراً ، تسانده عن قرب مدفعية موزعة ، يقوم مقامها ، كلما انتقلت ، عند كل هدف ، مشاة منقولون . ويعتبر الكولونيل ديغول أن تقدم مسافة خمسين كيلومتراً يمكن أن يتم ، إذا ما اتبعت هذه الطريقة ، في يوم واحد . « ثم ينشر الجيش الميكانيكي مروحـة الاستغلال » . وينهي الطيران ، من جهته ، تفكيك تكتلات العدو .

لقد حظي مذهب ديغول بمساندة بعض الصحافيين (اندره بيرونو ، ريمي رور ، الجنرال باراتيه ، بيار بورجيه ، والجنرالان كونياك ودوفال) . واقترح السيد

بول رينو مشروع قانون « بإنشاء جيش مختص على الفور ، مؤلف من ست فرق قتال وفرقة خفيفة، واحتياط عام ، وخدمات، من عسكريين يعملون بالتعاقد، على أن يُنتهى من تشكيله في ١٥ نيسان ١٩٤٠ على أبعد حد». ولكن الجنرالان دوبينه ، وويغان ، والمارشال بيتان حاربوا مذهب ديغول ، وهاجمه كذلك السيد ليون بلوم في جريدة « الشعب » ، فلم تقر اللجنة العسكرية في مجلس النواب مشروع السيد بول رينو. إلا أنهم أوجدوا فرقتين خفيفتين ميكانيكيتين سنة ١٩٣٩ ، ثم بوشر بانشاء فرقة ثالثة في السنة نفسها . وكان مجلس الحرب الأعلى قد قرر – ابتداء من سنة ١٩٣٨ – ونزولاً عند إصرار الجنرالان بيلوت وهيرنغ ، خلق فرقتين مدرعتين مسلحتين بالدبابات B من وزن ثلاثين طناً. (تم تشكيل إحداها في بداية سنة ١٩٤٠ ، وكانت الثانية في طريق التأليف) . في بادىء الأمر كانت كل منهما تضم ١٦٩ دبابة فقط ، تسعة وستون منها من القياس الوسط (كان الكولونيل ديغول قد طلب ٥٠٠ دبابة) . وفي سنة ١٩٤٠ أنشئت فرقتان مدرعتان . وبالجملة ، بعد مرحلة من التردد كان طابعها الاهتمام بخط ماجينو وجنود التحصينات ، اعتُمد تزويد الجيش بالسيارات والآليات . ولكن هذا العمل جاء متأخراً ويا للأسف . وفي الحقيقة ان النصر في دولة ديموقراطية هو دائماً مشؤوم بالنسبة لجيش ما بعد الحرب ، عندما لا تعود الامة تؤمن بامكان وقوع حرب جديدة، وترفض أن تقدم الوسائل الباهظة التكاليف لجهاز عسكري مجدّد. ذلك لأن تعزيز القوى المسلحة هو مسألة سياسية ومالية بمقدار ما هو مسألة عسكرية . ولما كان القادة الفرنسيون لم يتمكنوا من إحراز جيش له استراتيجيتهم ، فلم يبق أمامهم إلا أن يتبنوا استراتيجية جيشهم . وفي هذا تكمن فاجعة سنة ١٩٤٠ الكبرى .

٩

لمحة عن المذاهب العسكريّة الكبرى في الحرب العالمية الثانية

لا يمكننا في إطار هذا الكتيب الموجز تقديم دراسة مفصلة عن تطور المذاهب العسكرية في أثناء حرب ١٩٣٩ – ١٩٤٥ ، فنكتفي إذن ، بأن نقدم بإيجاز ، بعض هذه المفاهيم التي توجب الاهتمام ، والتي طُبقت في مجرى هذا الصراع الطويل .

نبدأ أولاً بالحرب الخاطفة التي ميزت عمليات كانون الثاني من سنة ١٩٣٩ حتى نهاية سنة ١٩٤١ ، في بولونيا وأوروبا الوسطى والبلقان وروسيا . لقد كانت هذه الحرب ألمانية بنوع خاص ، لأنها لا يمكن أن تكون إلا حرب الفريق الذي يملك الآلة التي تتطلبها . والواقع أن أفكار الجنرال ديغول كما بيّنا في الفصل السابق – كانت قريبة من أفكار الجنرال غودريان ، إلا أن تطبيقها لم يكن ممكناً على الوسائل الهزيلة التي كانت في حوزة الجيش الفرنسي سنة ١٩٣٩ . وعلى النقيض تماماً، كان جيش هتلر ، يملك ، في الأساس، ست فرق مدرعة تضم كل منها نظرياً : مجموعة للاستطلاع ، ولواءاً مدرعاً مؤلفاً من (٤٨٨) دبابة ، يتراوح وزن الواحدة منها بين (٦) و (١٩)

طناً ، ولواءاً آلياً من فوجين ، كل منهما مؤلف من ثلاثة كتائب ، وأربع فرق خفيفة قريبة في تشكيلها من الفرق الخفيفة الميكانيكية الفرنسية ، وقد تحولت في سنة ١٩٤٠ الى أربع فرق مدرعة إضافية . والواقع أن ألمانيا في حزيران سنة ١٩٤٠ كانت تملك عشر فرق مدرعة مجهزة بـ (٣٠٠٠) دبابة ، وما يقرب من (٦٠٠) سيارة مصفحة . وبفضل هذا التجهيز العظيم الذي لم يكن له مثيل في أي بلد آخر من بلدان العالم ، تمكنت ألمانيا من تطبيق نظريتها في الحرب الخاطفة التي هي ، في الحقيقة ، تجسيد لأفكار اتيان ، وفوالر ، وديغول .

إن السلاح المدرع الألماني هو من عمل الضباط الذين عاشوا الحرب العالمية الأولى وتعمقوا في دراستها . ويجب القول أن الجيش المغلوب – في أكثر الأحيان – يتعلق بوسائل القتال التي استعملها عدوه في محاربته ، والتي أشعرته بما يشبه مركّب الدونية . وهكذا ، فإن الألمان الذين أدهشتهم ، فيما مضى ، دبابات الحلفاء ، آلوا على أنفسهم أن يتحرروا من هذا الوسواس ، بتأليفهم هم أيضاً ، جيشاً قوياً مدرّعاً . وكانت هذه هي حالة الروس الذين تذكروا أن فرق مشاتهم العظيمة في الحرب العالمية الأولى قد أُبيدت تحت وطأة قصف المدافع الألمانية ، فانصرفوا الى انتاج المدافع في أثناء الصراع الجديد ، ودفعوا الى المعركة بأقوى مجموعات مدفعية عرفها التاريخ . أما بالنسبة الى الألمان ، فإن حجة أخرى لعبت دورها هي أيضاً . والواقع أن استراتيجية ما وراء نهر الرين ، حتى بعد سنة ١٩١٨ ، بقيت متعلقة كثيراً بمفهوم « شليفن » ، ونسبت الى « مولتك » سنة ١٩١٤ أنه قد فشل لأنه أضعف كثيراً جناح اليمين الشهير . واعتبر الكتاب الألمان ، غداة توقيع معاهدة « فرساي » ، أنه في الحرب المقبلة ، حيث يعمل الوقت ، على المدى الطويل ، إلى جانب الفرنسيين والبريطانيين الذين يتمتعون بدعم عالمي ، فإن الحرب العنيفة والسريعة وحدها هي التي تستطيع أن تنقذ ألمانيا . لأنه يجب ، مهما كان الثمن ، تجنب حرب أخرى استقرارية . وعلى هذه النقطة ، كان هنالك شبه إجماع لدى عدد كبير من الكتاب الالمان حتى قبل مجيء هتلر .

وفي الحقيقة ، كما يقول القواد الألمان ، يجب أن يضاف إلى عامل المفاجأة الذي لعب دوراً في حرب سنة ١٩١٤، القوة على الاختراق والاستغلال في وقت واحد. فالسلاح المدرّع والآلي هو الذي سيقوم بهذه المهمة ، فضلاً عن أن قوة طيران عظيمة مساندة ستسمح بتحقيق العمل الصاعق إذا ما اشتركت فيه الدبابة والطائرة معاً، وهذا العمل سيكون أحد مميزات السنتين ١٩٣٩و١٩٤٠. ومن جهة اخرى ، فإن الطيران الألماني بواسطة أسرابه القاصفة ستساهم ، من قريب ومن بعيد ، في الاستعداد الذي يمكن أن تقصّر مدته ؛ وستنشر «الشتوكا» الذعر في صفوف الأعداء ، وستحطم في الغالب الهجوم المعاكس في مهده ، وسيتسلم المظليون سلفاً نقاطاً هامة . وهكذا ، فالجيش الألماني الجديد المجهّز بأعداد آلية ومدرّعة ضخمة ، والمساند بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بطيران عظيم جرّ إلى الارتباط بالأسلحة المختلفة ، سيتمكّن أخيراً – بفضل مرونته – من تحقيق المثل الذي يجسّده مفهوم شليفن للمناورة، وذلك بالمفاجأة ثم الاختراق والنجاح النهائي بواسطة استغلال لا يرحم ستجعله ممكناً قوة وسرعة الآليات البرية والجوية .

وانطلاقاً من هذا الواقع ، فقد كرّست حملة بولونيا السريعة ، للمرة الاولى، مذهب الحرب الخاطفة . والحق يقال ، ان الألمان قد انتصروا بسهولة على الجيش البولوني ، لأنهم وهم المعتدون ، كانوا يتمتعون بميزة المبادهة . وكانت بولونيا تشكل ، في الواقع ، طوال حدودها ، خطاً منحنياً مترامي الأطراف مهيئاً بنوع عجيب للمناورة التطويقية . ولكن القيادة البولونية العليا ، وقد فوجئت وهي تقوم بالتجنيد العام ، خطرت لها فكرة مشؤومة هي القيام بهجوم كانت تنقصه ، بالفعل ، جميع الوسائل ، ولم يحظ حتى بمساندة طيرانها المتواضع الذي حطم على الأرض قبل كل إمكان للتدخل . وأخيراً ، فإن عدم وجود جيش مدرّع ودفاعٍ ضد الدبابات غير كافٍ سيجعلان من جيش المارشال ريدز سميغلي فريسة سهلة لكتل الألمان المدرّعة، بحيث أن القيادة الألمانية العليا نسبت الانتصار الزهيد الثمن على بولونيا لفعالية فرقها المدرّعة التي سيُرفع

عددها إلى عشر فرق بتحسين أربع فرق خفيفة ، كما سبق وذكرنا .

وبعد الحملة على بولونيا كانت معركة النرويج ضد بلدٍ ليس مستعداً ولا مجنداً، مع تدخل متأخر للقوى الحليفة. وقد أثبتت هذه المعركة – بالتأكيد – القيمة الحربية للجنود الذين حاربوا في الجبال بقيادة الجنرال ديتل، إلا أنه لم يكن لها أية مساهمة مهمة في تطور الأفكار في ذلك العصر .

وأخيراً ، ستكون معركة فرنسا ، على المسرح الرئيسي ، هي الانتصار الحقيقي للحرب الخاطفة ، ضد جيوش بلجيكية وهولندية مجندة بسرعة ، وجيش فرنسي لا تنقصه التجهيزات الآلية والمدرعة فحسب ، بل هو مجبر الى ذلك ، لأسباب سياسية ، على أن يقوم في بلجيكا بمناورة تعرّضت لكثير من النقد ، فضلاً عن أنه فوجيء من الناحية الاستراتيجية باتجاه هجوم العدو . إن هذه المعركة حققت أحلام أكثر أتباع المدرسة الألمانية الحديثة تفاؤلاً ، ولم يكن اتجاهها الرئيسي ضد منطقة سيدان سوى مبادهة هتلر نفسه الذي طبّق فكرة الجنرال مانستين ، وقد كان يدور حولها حينئذٍ جدال عنيف . بيد أن أسلوب مناورة الاختراق، المتبوع بعمليات استغلال وتطويق متواصلة سيشكل أكمل تعبير عن المذهب الألماني في ذلك الحين. وسيكون عمل الزوج «الشتوكا – والدبابة » بنوع خاص ، عملاً عظيماً .

إلا أنه على الصعيد الاستراتيجي ارتُكبت غلطة لا تُغتفر، ستكلف هتلر، على المدى الطويل ، خسارة حرب بدئت بنجاحٍ مذهل، وهي قراره بعدم شن هجوم على انكلترا غداة معركة دنكرك مباشرة فلماذا لم يقدم على هذه الخطوة ؟ هل كان ذلك رغبة منه في الانتهاء أولاً من فرنسا ، التي تُعتبر عن خطأ ، وفقاً لتقليد قديم ، عدواً أساسياً ؟ أم كان ذلك ، كما يفسره الجنرال ستودان القائد السابق للقوى الألمانية المنقولة جواً ، الوهم بإمكان التفاوض مع بريطانيا العظمى ؟ ويبقى دائماً أن هتلر لم يستطع أن يرى آنذاك في الجزر البريطانية المعزولة هدفاً استراتيجياً، ولذلك سيخسر حرب حزيران سنة ١٩٤٠.

وبعد ذلك فشلت غارات غورنغ الجوية على بريطانيا العظمى، بسبب عدم وجود طيران يستطيع القيام بالمهمة على طريقة «دوهيه» . أما الحرب الخاطفة فسترى نجاحاتها الأخيرة في سهول روسيا حيث ستكون نهايتها .

ففي سنة ١٩٤٢ قامت جيوش الرايخ بهجوم أخير عنيف على روسيا ، ولكنه كان أقل قوة من الهجوم السابق . سيكون ذلك أولاً تقدم مائة كيلومتر تقريباً ، وهذا انتصار لطريقة « موت بولك » أي تشكيلات كثيفة من الجنود المدرعة تتقدم كتلة لا تقاوم خلال خطوط العدو، وسيكون ذلك العمل السريع للمدرعات القاذفة التي تتدخل في الوقت المناسب لتنظيف أوكار المقاومة التي استسلمت أو التي تهاجمها القوى المدرعة . ولم يكن الجيش الروسي قد ملك بعد وسائل نارية كافية ، فلهذا سيبدو عاجزاً كل العجز أمام الكتيبة المدرعة الجديدة . ومن يوم الى آخر سيكون ، أولا ، التقدم الذي لا يرحم لهذه الكتل الفولاذية المتبوعة بفرق الاستغلال ، وسيكون انقضاض الجيوش الألمانية حتى ستالينغراد حيث الكوم الضخمة من الإسمنت ، وأعني الخرائب التي سببتها الشتوكا . إن هذه الأنقاض ستشكل عوائق كثيرة أمام الفرق المدرعة ، ولن تلعب الطريقة « دبابة — وشتوكا » دورها ، لأن جيوش الفوهرر ستكون منهكة كل الانهاك . أما عن الجبهة السوفياتية ، فعلى النقيض ، إذ ان المعركة التي كانت تقاد بعناد وحشي ، ستُغذّى باستمرار من الخارج . وسيحين دور الجيش الألماني لاحتمال هجمات عدوه ، وتطبيق مذهب جديد ، مذهب الدفاع المرن .

●

الواقع أن مفاهيم الجبهة المتصلة ، والمقاومة بدون فكرة تراجع، وخصوصاً في ما يتعلق بمكتسبات الحرب العالمية الأولى ، قد سقطت، بالتتابع ، منذ سنة ١٩٤٠ ، إذ تجاوزتها المناورة الألمانية . وبدوره ، سيجد الجيش الألماني نفسه عاجزاً عن إقامة حاجز بدون فجوات أمام الهجمات السوفياتية . وسيبلغ طول

خط النار في نيسان سنة ١٩٤٣ ألفي كيلومتر على الجبهة الروسية حيث كان هتلر لا يملك إلا مئتي فرقة غير مكتملة العـدد . ولم يكن الطيران يضم سوى (٥٠٠) مطاردة، و (١٢٠٠) قاذفة قنابل لمساندة هذه الفرق. وواضح أن هذا العدد غير كاف لحماية جيوش الرايخ من هجمات الـ «ستورموفيكس»،وعاجز عن تأمين إعداد الهجومات او الهجومات المعاكسة في مهل معقولة . وبالاختصار، فإن الجيش الألماني ، مع تجهيزاته المتناقضة ، وطيرانه الموزّع ، وجد نفسه في الوضع الذي كان فيه الجيش الفرنسي في حزيران سنة ١٩٤٠ .

ولكنه ، على الأقل ، حاول أن يجابه بشجاعة ، وبعقلية هجومية تماماً ، العدو الروسي الذي كان تفوقه على مجموع مسرح العمليات بمعدل اثنين مقابـل واحد ، وعلى جبهات الهجوم بمعدل ثلاثة وحتى أربعة مقابل واحد . لقد تخلى الجيش الألماني عن عمليات الدفاع وقاد مقاومته علىأساس أسلحة هجومية بحتة، في « استراتيجية للخروج » بحسب التعبير الصحيح الذي جاء في كتاب الماجور ايدي بوير «حرب المدرعات». وقد وجد أداة مذهبه الجديد في الفرق المدرعة، والمدرعات القاذفة . وكانت الفرقة المدرعـة ما تزال في سنة ١٩٤٣ وحدة ميكانيكية كبرى من النموذج الثلاثي ، ولكنها خفّفت في العـدد . فالفوج المدرع يحتوي غالباً (٢٤٠) آلية مزنجرة مع نسبة متزايدة من دبابات «مارك ٤ » ، التي بُدّلت بدورها ، بدبابات تيجر (٥٨ طنـاً) . وكانت المشاة ممثلة بفوجين من المدرعات القاذفة ، في كل منهما سرية من المدافع المضادة للطائرات ، وسرية من مطاردي الدبابات ، وبطارية ذاتيـة الحركة من (٧٥) إلى (١٢) قطعة . وفضلا عن ذلك ، فقد عُزّزت الفرقـة المدرعة بكتيبة من الدراجات النارية قابلة للقيام بدور حرس الجناح أو حرس المؤخرة .

أما المدفعية التي كانت فيما مضى فوجاً مؤلفاً من مجموعتين من(١٠٥)مقطورات، أصبحت تضم الآن ثلاث مجموعات ، اثنان منها من (١٠٥) محمولة على سيارات، ومجموعة من (١٥٠) . أضف إلى ذلك مجموعة رابعة من ثلاث بطاريات من نوع

« سترمفتش» (١٠٥) ، تعمل مباشرة تحت أمرة قائد المدرعات أو امرة قائد المدفعية . وبالجملة ، فقد ضم الألمان ، كما فعل الروس ، في ملاك الفرقة المدرعة ، الآليات إلى المدفعية التي اتسم عملها بأهمية متزايدة مع تخفيف الطيران .

وإلى جانب الفرقة المدرعة ، شُكّلت فرقة من المدرعات القاذفة شبيهة بها في تشكيلها ، حلت فيها كتيبة من دبابات الهجوم من مائة إلى مائة وخمسين آلية محل فوج المدرعات . وهذه الوحدة الكبيرة كان قوامها (١٠،٠٠٠) جندي تقريباً (مقابل الـ ١٢،٠٠٠ من المدرعين) . وأخيراً ، دفع الجيش الألماني إلى الميدان في شتاء ١٩٤٣ — ١٩٤٤ بألوية من الـ « سترمفتش » (بدون شك ما يقرب من مائة متحركة ذاتية من ١٠٥) ، ولكننا لا نملك عنها إلا شيئاً زهيداً من المعلومات .

وتجدر بنا الإشارة إلى أن الروس قد شكلوا جيشاً مدرعاً هو قريب في مميزاته من الفرقة المدرعة الألمانية . ولكن التفوق في العدد كان قد بدّل مكانه، في سنة ١٩٤٣ ، بعد كثير من المدّ والجزر :

— منذ ٢٢ حزيران حتى نهاية سنة ١٩٤١ كان التقدم العجيب للجيوش الألمانية التي لم تُوقّف إلا أمام موسكو فقط .

— ثم تقهقر الألمان تحت ضربات جوكوف وتيموشنكو .

— وفي تموز من سنة ١٩٤٢ هجوم ألماني جديد على ستالينغراد والقوقاس في وقت واحد ، وقد فشل فشلاً نهائياً في أواخر تشرين الثاني من السنة نفسها .

— ثم الهجوم الروسي الثاني ، خلال الشتاء ، الذي دفع بالألمان إلى الوراء ، ولكنهم تمكنوا بقفزة فجائيـة من استعادة خاركوف بهجوم معاكس قاده مانستين .

إلا أنه ابتداء من تموز سنة ١٩٤٣ انتقلت المبادهة في العمليات نهائياً إلى يد الجيش الأحمر ، وأصبحت ردود الفعل الألمانية ، القصيرة المدى، تتم في جبهات تزداد ضيقاً . وكانت أهم هذه العمليات عملية كورسك ، التي امتدت على جبهة

طولها اربعمائة كيلومتر فقط . أضف إلى ذلك أن الجيوش ، في أثناء انتقالها ، كانت تتعرض دائماً لهجمات الطيران السوفياتي المفاجئة قبل بلوغها خط الانطلاق. ومع ذلك أطلق الألمان مناورتهم على شكل كماشة بفرع قوي في الشمال مع الجيش الثاني المدرع (سبع فرق مدرعة) ، وفرقة من المدرعات القاذفـة ، وفرقتين من التحركات الذاتيـــة ، فكان المجموع (١٥٠٠٠٠) جندي ، وأكثر من (٢٠٠٠) آلية مدرعة ، ومع الجيش التاسع المؤلف من خمس عشرة فرقة من المشاة . وكان قوام الفرع الجنوبي الجيش الرابع فقط الذي تغطي جناحه الأيمن حواجز الدونتز والاسكول .

ولكن هذه المناورة التي كان يتوقف عليها التقـــاء الجيش الثاني والجيش الرابع في منطقة كورسك ، وراء روكوسوفسكي ، فشلت بسبب مبادهة هـذا الأخير الذي لم يتأثر بالتهديد الذي كانت تواجهه مؤخرة جيشه ، فانتقل بحزم الى الهجوم على نتوء اوريل ، وهي عملية سبقتها استعدادات ضخمة في مدفعية الميدان : ففي الثالث عشر من تموز كانت كثافة المدافع في الكيلومتر الواحـد تتراوح بين (١٣٠) و (١٥٠) مدفعاً ، وذلك على جبهة طولها ثمانون كيلومتراً. وهذه العملية التي اقتيدت بوسائل محطمة ستجمد الوحدات الألمانية الضخمة ، وستجبر الجيش الألماني على الانتقال الى الدفاع .

ومنذ ذلك الحين أخذت القيادة الألمانية العليا تتكلم عن الدفاع المرن. وشعر الألمان أنهم عاجزون عن الصمود أمام القوى السوفياتية الضخمة ، فأخـــذوا يتراجعون بشكل منسق أمام الضغط الروسي لكي يواجهوا دبابات العدو خارج دائرة عمل كتل مدفعية الجيش الأحمر. وسوف يجبرون روكوسوفسكي، بعملهم هذا ، على القيام بقفزات متتابعة توافق الوقت اللازم لنقل المدفع السوفيـــاتي الضخم . إلا أن اوريل ستسقط في النهاية ، وستعود الحلقة الجهنمية : التراجع من أجل تأخير التركيز ، ثم التراجع أيضاً عندما تصبح المدفعيـة الروسية في وضع تستطيع معه إصابة الهدف .

والحق يقال أن التقدم الروسي على الجبهات الأخرى سيكون أقل صعوبة، وذلك بسبب عدم وجود تنظيم دفاعي ألماني مهم . ومن وقت الى آخر ، كانت هجومات ألمانية معاكسة يومية على الثغرات توقف التقدم الروسي، في خركوف مثلاً . ولكن النجاح الذي يحصلون عليه هو دائماً وقتي . وفي أيلول حدث « تضييق الجبهة » الشهير (في الحقيقة (١٥ ٪) الذي تكلم عنه الالمان، ولكنه كان بعيداً عن تعويض الخسائر التي منوا بها .

وقد تمت عملية الانفكاك كذلك بطريقة قياسية كما سمحت بذلك الظروف. فلم توقف أية مجموعة في أثناء الانسحاب من حوض الدونتز . ولعب الجيش الرابع دور السجّان بمهارة بعد خاركوف . وقد تم انسحاب الجيش الالماني ، الذي كان يغطي تحركاته حرس مؤخرة آلي مدرع ، وفقاً لقاعدة قياسية بوجه عام ، وذلك بفضل التضحية ببعض الفرق : مثلاً ، ما يقرب من سبع عشرة وحدة كبرى في عملها لتغطية تحركات مجموعات الجيوش التي يقودها مانستين وكلوج .

وفي كل مكان كان العدو ملازماً للجيش الالماني المتراجع . ففي تشرين الاول بلغوا الدنيبر ، ثم استؤنف السير إلى الامام . وفي تشرين الثاني شُنَّ هجوم ألماني معاكس حول جيتومير قام به هوث ، ولكنه لم يكن أكثر اتساعاً من هجوم كورسك ؛ لانه لم يكن يضم إلا ما مجموعه سبع فرق مدرعة ، وفرقتين من المدرعات القاذفة ، وما يقرب من خمس عشرة فرقة عادية ، أي عدد يتراوح بين (٢٠٠،٠٠٠) و (٢٢٥،٠٠٠) جندي . فكان للألمان في هذا الهجوم نجاح وقتي وربح وقتي كذلك لمسافة تتراوح بين (٤٠) و(٨٠) كيلو متراً في العمق ، على جبهة طولها (١٥٠) كيلو متراً ، وهكذا كان الالمان ، في أثناء تراجعهم ، يبذلون الجهد لشق هجومات معاكسة ، بوسائل تتناقص يوماً عن يوم ، لكي يفرضوا على عدوهم الروسي انكسارات محلية . وإذا كان الجيش الالماني قد سقط في النهاية فذلك لان عدم التوازن في القوى المتقابلة

وإصرار هتلر على رفض التراجع في الوقت المناسب جعلاه في وضع لا يستطيع معه الصمود ، على المدى الطويل ، أمام عدو يزداد عدده يوماً عن يوم ، وأفضل منه تجهيزاً . والحقيقة أن الجيش الالماني قد أتلف نفسه في هذه اللعبة ؛ وتمكن الروس ، في النهاية ، من التقدم على الفيستول والاودير بالسرعة التي سمحت بها محركاتهم ، ذلك لان هذا الدفاع المرن الشهير له حدوده في الوقت وفي المدى ؛ فلا يمكن أن يُلجأ إليه إلا إذا كان بالإمكان إعداد مقاومة ثابتة ، أو هجوم معاكس واسع النطاق ، في مدة معقولة . ولم يكن ذلك متيسراً للجيش الالماني في سنة ١٩٤٣ — ١٩٤٤. ومع ذلك فالمؤرخون يجدون في التراجع المرن للجيش الالماني من روسيا حالات حسية مفيدة ، تحدد ، من أجل المستقبل ، شروط استعمال هذا المذهب الذي وفّر للقيادة الالمانية نجاحات مليئة بالدروس على الرغم من صفتها الوقتية .

●

بعد أن درسنا المظهرين الاكثر تميزاً في المذاهب الالمانية التي طبّقت في الحرب العالمية الثانية ، نرى لزاماً علينا أن نذكر — في خطوطه الكبرى — تطور الافكار في ما يختص بالتكتيك والاستراتيجية ، خلال هذه الحرب نفسها ، في حقل الحلفاء الانكلو — ساكسون . ولما كنا لا نستطيع أن نعالج ، بالتفصيل ، هذا التوسع الطويل على مسارح كثيرة التنوع ، كأوروبا ، وافريقيا ، والشرق الاقصى ، فنكتفي أولاً باستخراج المذهب الانكلو — ساكسوني في ما يتعلق باستعمال الدبابات ، ثم نحيط بأكثر الاشكال تميزاً للفكرة العسكرية الحديثة : أي خطة العمليات البرمائية والقارية .

أما في ما يختص بالدبابات ، فإن أفكار الجنرال البريطاني فوللر بنوع خاص ، هي التي استلهمتها العمليات في صفوف الحلفاء ، خلال الحرب العالمية الثانية . لقد كان هذا الجنرال ، والمشرّع الكبير ، من محاربي ١٩١٤ — ١٩١٨ ، وحدث له أن واجه استعمال الدبابات بكثافة في معركة كمبريه ؛ ولما كان

يحتفظ دائماً بتيقظٍ فكري ، فقد عرض أفكاره في كتابه « الحرب الميكانيكية وتطبيقاتها » ، الذي نشره سنة ١٩٤٢ بعد هزيمة رومل . إن هــذا المؤلـّف يوضح لنا مفاهيم الحلفاء التي ستكون مفاهيم الحرب الميكانيكية والذاتيــة الحركة . وهــذا الكتاب ، ذو المرمى البعيد ، تسيطر عليه فكرة كلوزويتز المطبّقة على المناسبات الخاصة من « عهد الآلة » . لقد درس « فوللر » أولاً إطار الحرب الحالية ، أي مجتمع القرن العشرين الذي شكلته مدنية ميكانيكية ومادية .

ولكن أفكار كلوزويتز الأساسية تبقى ذات قيمة في هذا العـالم الجديد . وتبقى الحرب دائماً مبارزة مكبرة ، وعملاً عنيفاً مدفوعاً حتى حدوده النهائية ، ويبقى دائمـاً تحطيم العدو الهدف الحقيقي لجميع المعارك . وفي سبيل ذلك يجب التوصل الى الهجوم الذي يقرر وحده مصير المعركة ، كما يجب تأمين تفوق مادي ومعنوي وذهني . أما الدفاع فهو يشكل دوماً أقوى شكل للحرب . ولكن ، ليس له إلا غاية سلبية .

لقد اعتنق « فوللر » هذه المبادىء الأساسية ، وعرض كيفية تطبيقهـا في الحرب الميكانيكية ، هذه الحرب المشروطة بالتقدم : إذ أن المعركة تمتد على ثلاثة أبعاد ، من حيث تنتج أهمية القواعد الجوية ، التي يجب أن تكون المحافظة عليهـا من أهم شواغل قواد الحرب الحاليين . وفي تنفيذ العمليات ستكون العوامل المسيطرة هي السرعة والقوة . أما في مـا يتعلق بالتوجيه الأعلى للحرب ، فيجب أن يستوحي الذين تناط بهم هذه المهمة الاعتبارات التالية :

– مفهوم الحرب الكاملة بناء على توسعها في المدى ، وبناء على خصائصها .
– ضرورة إنمـاء القوة والسرعة في العمليات الحربية ، وفي الوسائل التي تستخدمها .
– أهمية القواعد .
– التخلي التام عن الدفاع السلبي المتصل بالأرض ، حيث يتعرض الجيش

للتجاوز ، وخصوصاً بـ « تغطية عمودية » :

وفي حقل التكتيك ، يجب على الآلة التي استعبدت الإنسان أن تقدم له ، بالمقابل ، امكانات متزايدة . فالآلية المدرعة ، بنوع خاص ، لن تبقى سلاح تكملة ، بل ستشكل في عمل جماعي أداة للاختراق والاستغلال .

هذه هي الأفكار التي كانت معتمده ، بوجه عام ، في معسكر الحلفاء . إلا أنه تجدر بنا الاشاره الى أن الأميركيين ، حين دخولهم الحرب ، دفعوا الى الميدان بفرقة مدرعة لا تشبهها أية فرقة أخرى . وقد كانت هذه الوحدة الكبرى تمثل ، في الحقيقة ، أرقى مستوى مدرع في قوى الولايات المتحدة . واذا كان الألمان قد دفعوا الى الميدان ابتداء من سنة ١٩٤١ لا بقطع مدرعة وحسب ، بل بجيوش مدرعة كاملة ، وإذا كان الروس في شتاء ١٩٤٣ — ١٩٤٤ قد أطلقوا ، هم أيضاً ، جيوشاً ميكانيكية حقيقية ، فإن القيادة الأميركية لم تتجاوز مستوى فرقتها المدرعة . ويفسر هذا المفهوم الدرجة العليا التي كانت قد بلغتها الجيوش الاميركية من ناحية تزويدها بالآليات ، حيث جميع الفرق هي من « مستوى واحد » ، وكلها تعمل بنظام متساوٍ في داخل القطعة . وقد كانت الفرقة الأميركية المدرعة التي أنزلت في أفريقيا الشمالية سنة ١٩٤٢ مؤلفة على الشكل التالي :

– ثلاث كتائب من الدبابات (٣ × ٦٨ دبابة) .
– ثلاث كتائب من الرماة المحمولين .
– مجموعه استطلاع .
– ثلاث مجموعات من المتحركات الذاتية من فئة ١٠٥ (٣ × ١٨ قذاف) .

وكانت تضم (١٣,٠٠٠) رجل ، و ٢٢١ دبابة ، و ٦٨ سياره مصفحة . إنها فرقة من نموذج ثلاثي ، ولكنها لا تحتوي فوجاً ولا كتيبة . وعلى النقيض كان المزج بين الأسلحة يتم بحسب الدرجات في ملاك الفرقة المقاتلة . وهذه الفرقة التي شكلها الاميركيون، بعد دراستهم لمعارك الجبهة الأوروبية ،

أصبحت تنظيماً عضوياً مؤلفاً من سرية من الأركان العامة ، وكتيبة من الدبابات ، وكتيبة من الرماة المحمولين ، ومجموعة من المتحركات الذاتية من فئة (١٠٥) . وبالاجمال ، كل فرقة مقاتلة كانت تحتوي عنصراً مدرعاً ، وعنصراً للاحتلال ، وعنصراً نارياً . وكان الاستطلاع يتم على مستوى الفرقة ؛ وقد جهزت مجموعة الاستطلاع بسيارات مصفحة من وزن ثمانية أطنان ، وبسرية من الدبابات الخفيفة ، لكي لا تتوقف أمام ستار عدو بسيط . وتجدر الملاحظة أنه لم يكن هنالك مدفعيه خاصة بالفرقة ، وأن الجنرال كان يناور عادة بفرقتين مقاتلتين في الخط ، وبواحدة احتياطية كانت تتدخل كذلك بوسائل التقوية التي تقدمها القطعة .

ولكن ، إذا كان التنظيم والعمل الداخلي في الفرقة الأميركية يختلفان عنهما في الجيوش البريطانية ، فإن هذا الاختلاف لم يكن قائماً في الأنساق العليا ، ونستطيع القول أن كان هنالك اتفاق بين وجهات النظر في ما يتعلق بالوسائل التي يجب تطبيقها . وفضلاً عن ذلك ، أصبح عالم الحرب الانكلو — سكسوني عملاً مشتركاً ، يتطلب على مستوى التنظيمات الكبرى بين الحلفاء ، خططاً على مستوى القارتين . فكانت هذه الخطط تتوقع عمليات مختلطة ذات اتساع لم يعرف مثله تاريخ حروب الشعوب ، وكانت هذه الأعمال تستمد مرماها ، وقوتها ، ونسقها ، من امتيازات الآلة العاملة في الأبعاد الثلاثة . أما الخطة الضخمة التي أتاحتها ، فهي ، بكل بساطة ، نقل طرق الصناعة الحديثة والتقنية الأميركية الى حقل الحرب العالمية والعمليات المشتركة ، وتطبيقها بواسطة أركان حرب ضخم يعالج جميع المظاهر : الاستراتيجية ، والتكتيكية ، والاقتصادية ، والمالية ، والسياسية ، والاجتماعية ، لهذه المسألة العظيمة التي تختلف شروطها بنسبة قارة كل مسرح للعمليات .

إن الجنرال أيزنهاور يصف لنا طويلاً في مذكراته مفهوم خطة أوفرلورد ، وتهيئتها ، ويظهر لنا ميكانيكية المخطط الذي استعمل في هذه المناسبة ، منذ

وضع خطة كوساك الأولية حتى تنفيذ العملية . فالمشروع الأساسي ، الذي كان يرتكز على ثلاث فرق في الهجوم الأول ، عُدّل بناء على طلب الجنرال أيزنهاور ، ورفع العدد الى أربع فرق أنزلت على شاطىء وُسّع ، هو أيضاً ، بالنسبة إلى الافتراض الأولي . ثم واجهوا تدخل فرقتين أحضرتا بالطائرات . وقد عولجت جميع هذه المسائل بشكل متواز حسب طريقة « التعاون في الخطة » ، فإذا ما اتخذ القرار يبدأ كل مساهم دراسته شرط أن يجعلها موافقة لما تتطلبه ظروف الساعة الأخيرة ، بنسبة النتائج المكتسبة ، أو وفق تعديلات يطلبها هذا أو ذاك ؛ حتى إن هيئات أركان حرب متعددة يعمل فيها عسكريون ، وتقنيون ، واقتصاديون ، وحتى محلفون وعلماء نفس ، كانوا ينغمسون في عمل ضخم ، وفي اللحظة الأخيرة تباشر العملية .

وإن لفي هذا ، قبل الهجوم بحصر المعنى ، تنظيماً دقيقاً وطويلاً للعملية يبدأ في اللحظة نفسها التي توضع فيها الخطة ، ولا ينتهي إلا بانطلاق جيوش الهجوم ومسانديهم نحو الهدف المقصودّ ويشتمل هذا العمل على ثلاث مراحل : إعداد التسهيلات المادية الضرورية للعملية ، وتجميع الجنود والأعتدة ، ثم نقلهم جواً أو بحراً .

وفي تتابع هذه المراحل تحدد المسؤوليات ، وتوزع بين قائد المسرح الحربي ومرؤوسيه ، وبالضبط بين قائد القوى المختلطة وقواد التنظيمات التقنية للتنفيذ ، وقائد الجنود المنقولين جواً ، وقواد الجيوش (الأرضية ، والبحرية ، والجوية) الذين تتبع لهم القوات التي دُفعت الى العمل .

وعندما تحدد هذه الصلاحيات تحديداً واضحاً يباشر كل واحد بتطبيق خطته ، كما شرحت له ، مع اهتمام دائم بالتعديلات التي تجيء ، في كل لحظة ، لتهدم أو تحسن العمل المنجز .

وهكذا نرى أن عملية اوفرلورد قد حُبل بها وقتاً طويلاً . والواقع أنه في كانون الثاني سنة ١٩٤٣ اتخذ قواد أركان الحرب العامون قرارهم بشأنها ، وفي

نهاية تشرين الثاني تم وضع الخطة التمهيدية .

وفي كانون الأول عين الجنرال أيزنهاور قائداً عاماً بصفة غير رسمية ، ولم يتبلغ تعيينه الرسمي إلا في أواخر شباط . وكانت العملية متوقعة ، مبدئياً ، في أول نيسان ، ولكنها أرجئت الى حزيران بسبب عدم كفاية وسائل النقل المتفرغة ، وحتى اللحظة الأخيرة كانت الخطـــة تقاسي تعديلات تفرضها الظروف . والحق يقال أن دفع هذه الميكانيكية الضخمة الى العمل ، وقد يبدو أحياناً أنه يتخطى مقدرة الانسان ، يحتوي مـا يعاكسه في ذاته : فإذا كانت بعض التعديلات ممكنة ، وحتى لا مفر منهـا ، فلا يمكن ، بالمقابل ، أن يخطر على البال عملياً إعادة النظر في المبدأ نفسه لخطة درست طويلاً وتحسنت . هذا على الأقل ما كان يفكر فيه القائد الأميركي عندما اعتبر تشرشل أن تدخلاً في أوروبا الوسطى هو عمـل ملائم ، واقترح تغيير محور الجهود الاستراتيجية المتوقعة . ربما كان تشرشل على حق ، ولكن القوة في الرفض الأميركي أظهرت كم هو خطر على خطة الحلفاء أن تبدل بشكل فجائي عملية في طريق التنفيذ بمناورة استراتيجية . ومما لا ريب فيه أن هذه هي نقطة الضعف في هـــذه الطريقة . لأنـــه ، اذا كان يمكن في حقل الأنجازات الكبرى ، الصناعية أو الاقتصادية ، أن يُسمح أحياناً بمهل طويلة ، فإن الوقت ينقص غالباً في تتميم خطة استراتيجية في طريق التنفيذ، بحيث أن تطبيق قواعد الاقتصاد والصناعة الاميركية في حقل الاستراتيجية الحليفة لا يلبث أن يجد حدوده. فهذه القواعد لا تترك مكاناً كافياً لغير المتوقع [١] ، الهام جداً بالنسبة للحرب . فلم يكن هنالك وحدة كاملة بين خطة « اوفرلورد » وخطة « تيناس فالي اوتوريتي » مثلا . إلا أن التشابه في الطرق المستعملة في الحالتين يلفت الانتباه ، لأن تطبيق الوسائل الصناعية في هذا الحقل ، على سير العمليات العسكرية ، وعلى تدخلات

---

١ – لولا جيوش الجنرال جوان في افريقيا الشمالية : وهي المدربـــة بعيداً عن الطرق الأميركية لما كان انتصار غاريغليانو ليخطر على البال .

الطيران الاستراتيجية ، يشكل ، في الواقع ، أكبر المميزات التي تسترعي الانتباه في استراتيجية الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية .

●

ويجدر بنا في هذا المجال أن نخص بالذكر المذاهب السوفياتية التي تأثرت بشروط الاتحاد السوفياتي الخاصة : دلالة ديموغرافية قوية ، مساحة الأرض الشاسعة ، ندرة خطوط المواصلات. والواقع اننا لا نعرف تمام المعرفة العمليات التي قادها الروس الذين لم ينشر قادتهم العسكريون والسياسيون مذكراتهم ، ولم يضعوا دراسات شبيهة بتلك التي نشرت في البلدان الغربية . ومع ذلك فمن الممكن أن نستخرج ، على الأقل ، المميزات الأساسية الاستراتيجية التي اتبعها الروس وللتكتيك الذي اعتمدوه في أواخر الحرب .

١ً – إن الروس الذين قاسوا من الهجوم الألماني العنيف كانوا كالألمان ، يؤمنون بالسلاح المدرّع ، ومثل الالمان توصلوا الى استعمال فرقٍ وجيوش ميكانيكية . ومناوراتهم قريبة في شكلها من مناورات الجيش الالماني ، إنما مع تكملة من تشكيلات الأنصار ، أو وحدات منفردة كانت تبقى خلف الخطوط الألمانية ، وتهدد مؤخرة الجيش الالماني . وفضلاً عن ذلك، وخصوصاً في أواخر الحرب ، كانت الهجومات الروسية تتسم بقوة في المصادمة لم يتوصل اليها الجيش الالماني أبداً . وبعد تجميع عظيم للمدفعية ، وإدخال قاذفات الألغام ، والستورموفيك ، أُدخلت الى خط القتال مجموعات من الدبابات ، على جبهة واسعة ؛ وقد كان عليها ، مهما كان الثمن ، أن تبلغ نقطة التقاء بعيدة حيث يجتمع ما تبقى منها، لتنتشر بعد ذلك على شكل مروحة وتبدأ عملية الاستغلال. هذه هي « المناورة على شكل X » ، وهي من اختراع المارشال كونييف ، وقد كان تحقيقها ممكناً في ذلك الوقت بسبب ندرة الطائرات الألمانية .

٢ً – إن الهجومات الروسية كانت تتم بتفوق عددي في الجيوش والأعتدة. وكان المشاة الروس يعملون على دفعات متتابعة بدون اهتمام بالخسائر التي يمنون

بها . وقد آمنت القيادة العليا للجيش الأحمر بضرورة التفوق العددي وأهميته : اثنان مقابل واحد على مجموع المسرح الحربي ، وثلاثة أو أربعة مقابل واحد على جبهات الهجوم .

٣ً – إن الجيش الروسي الذي هزمته المدفعية الالمانية في الحرب العالمية الأولى ، سعى الى تطوير هذا السلاح ، الذي أصبح استعماله بكثافة عقيدة لا حياد عنها بالنسبة الى الروس ، فألفوا ألوية وفرقاً من المدفعية سيشكل تجميعها أكبر تركيز محطم للنيران الأرضية في التاريخ . وهكذا وضع الروس أمام برلين بطاريات من المدفعية مؤلفة من أكثر من (٢٥,٠٠٠) مدافع ، بمعدل (٦١٠) مدافع في الكيلومتر الواحد ، كانت تقذف ما يزيد وزنه عن (٢٥,٠٠٠) طن من القنابل على العاصمة الالمانية .

٤ً – إن القوات الجوية السوفياتية كُرّست بمجموعها لمساندة العمليات الأرضية ، إذ أن تحطيم الأعتدة الالمانية في الأماكن البعيدة كان يتم بواسطة الطيران الاستراتيجي الانكلو – اميركي ، والوحدات الحليفة الموضوعة تحت إمرته . وقد تمكنت التشكيلات الجوية الروسية ، بفضل إنتاج صناعي ضخم من تأمين مساندة ذات وزن ، وكثيفة بنوع خاص . وهكذا ، في سبيل إعادة الهجوم على الجبهة الاوكرانية الثانية ، تمكن الجنرال بولينوف في كانون الثاني سنة ١٩٤٤ ، من شن معركة جوية برية ، دفع اليها بقطعة كاملة من الستورموفيك ، وفرقة من قاذفات القنابل المتوسطة الحجم ، وفرقتين من قناصي الحرس . وبالمقابل ، لم تلعب القوات المنقولة جواً دوراً هاماً جداً في هجومات الجيش الأحمر . وما عدا المظليين وراء الخطوط الالمانية ، فإننا نكتفي بالإشارة الى تدخل الفرقة الرابعة المنقولة جواً ، في جبهة اوكرانيا الاولى ، في تشرين الثاني سنة ١٩٤٣ ، وذلك لاحتلال اوفروتش ، وهي مدينة صغيرة في الشمال الغربي من جيتومير .

٥ً – وبسبب اتساع رقعة الأراضي الروسية ، وطول خطوط المواصلات ،

وفقر شبكات الطرق والسكك الحديدية ، كانت قيادة المؤخرة هي التي تؤمن ، بالضرورة ، عملية إسكان القوات الروسية ، لا جيوش المعركة . وهو تنظيم ليس له شبيه في أي جيش أجنبي آخر .

•

لقد تناولنا بالكلام بعض الأفكار الرئيسية التي سادت في المعسكرين بالنسبة لتوجيه العمليات على الجبهات الاوروبية ، في أثناء الحرب العالمية الثانية . وقد كان يمكن أن تعطى ملاحظات مشابهة عن المسارح العسكرية الاخرى ، حيث برز للوجود مذهب حرب الأدغال ، وقد ترك لنا « ونفات » معلومات هامة عنها . أما في حقل العمليات البرمائية الكبيرة ، فإن التقنية الاميركية كانت تُعنى دائماً بإتقانها ، وكانت تتحسن باستمرار خلال العمليات الكبرى في المحيط الباسيفيكي ، حيث أُجبرت القيادة على النصح باستعمال حاملات الطائرات استعمالاً كثيفاً ، بسبب عدم وجود قواعد أرضية كافية .

وفي كثير من المسارح العسكرية ، مؤازرةً لعمليات الحرب المفتوحة ، تطورت الحرب الخفيّة واتسمت باتساع لم يُعرف مثله حتى ذلك التاريخ : عصابات ، وأنصار ، وخصوصاً في المناطق الجبلية ؛ وتخريب من كل نوع في المدن ، وفي المراكز الصناعية والاقتصادية ؛ وصحافة خفية على علاقة بحرب نفسية عنيفة ؛ ونشاط عددٍ لا يحصى من شبكات الاستخبارات العسكرية ، والسياسية ، او الاقتصادية . وخاصة الحزب الشيوعي الذي تشعبت تنظيماته في أوقات السلم في العالم أجمع ، فاستطاع أن يقيم مِلاكاً يُستغل مباشرة وبفعالية في حقل العمليات الخفية . إن دراسة نشاطاته من وجهة النظر هذه ، في حرب ١٩٣٩ – ١٩٤٥ ، جديرة بأن تقدم لنا معلومات من المرتبة الأولى عن هذا المظهر الخاص لحرب المستقبل .

بيد أن الخبرة التي كان يمكن ان تكتسب من الحرب العالمية الثانية بقيت ناقصة في حقول كثيرة . فالغاز والسلاح الجرثومي لم يستعملا في المعارك .

والجنود المنقولون جواً لم يقدموا الإفادة التي كان يمكن أن يقدموها في أواخر الحرب خصوصاً . لقد استعملهم الألمان أولاً مفارز مفارز ، ولم يعودوا الى استعمالهم بكثافة بعد نجاحهم الكبير في جزيرة كريت [1] ، بسبب الخسارة الكبيرة التي منوا بها ، مما جعل هتلر يمتنع عن استعمالهم ثانية . وقد استعملهم الحلفاء على شكل فرق في أواخر الحرب ، ولكنهم لم يتمكنوا أبداً من أن يشكلوا رؤوس جسر جوية ، لمسافات بعيدة ، إلا بما كانت تسمح به إمكانات النقل الجوي في أواخر الحرب .

وحتى استعمال الدبابات انتهى الى خبرة ناقصة ، ذلك أن الحرب قد انتهت قبل تطوير الأسلحة المضادة للدبابات تطويراً كافياً . ولم يتسع الوقت للشكل الكامل لهذا التطوير ، أي الآلي الموجه للظهور في معركة سنة ١٩٤٥ .

وأخيراً ، اذا كانت القنبلة الذرية هي الضربة القاضية التي وجهت الى اليابان التي كانت – والحق يقال – مغلوبة افتراضياً ، فإن هذه القنبلة الذرية ، لم تظهر إلا متأخرة جداً لتسمح بإيجاد مذهب خاص بامكاناتها الهجومية أو الدفاعية ، بحيث أن الحرب العالمية الثانية ، في حقل التخريب الكثيف ، قد انتهت في الحقيقة ، بالنسبة للمشرعين العسكريين ، عند علامة استفهام كبيرة .

---

١ – راجع مقالنا « الجيوش الألمانية المنقولة جواً في ١٩٣٩ – ١٩٤٥ » ، المنشور في مجلة الدفاع الوطني ، كانون الأول سنة ١٩٥٢ .

١٠

تطور الأفكار بعد الحرب العالمية الثانيـــة

تنظيمات جماعية للدفاع ومفاهيم عن حروب المستقبل. — بعد انتصار سنة ١٩٤٥ مباشرة سرّحت حكومتا انكلترا واميركا الديموقراطيتـان جيوشهما ، نزولاً عند إلحاح الرأي العـام في شعبيهما ، بينما انصرفت الدول الاوروبية كلياً الى إعادة بناء خرائبها . وعلى النقيض، فقد احتفظت روسيا بجيشها واستمرت في صنع الأسلحة بكثرة . وفي الوقت نفسه تطوّرت شيئاً فشيئاً ، في العـــالم أجمع ، حركات ثورية داخلية (اليونان ، ايران ، الصين) ، واستيقظت الشعوب التي تحت الوصاية (كوريا ، الهند الصينية ، ماليزيا) ، وقد حرّكتها الأحزاب الشيوعية . وفضلاً عن ذلك ، كانت تجري عمليات ضمٍّ تقوم بها روسيـا التي كان يهمها أن تحيط نفسها بنطاق من الأعوان المسلحين .

ففي هذه الظروف ، وأمام عاطفة من الأسى ، تنمو بلا انقطـــاع لدى حكومات الدول الغربية ، تطورت فكرة ميثاقٍ كان تشرشل قد اقترحه منذ سنة ١٩٤٦ ، ولكن أحداً لم يوله اهتماماً ، إلا انه بعد الانقـلاب الشيوعي في براغ (شباط ١٩٤٨) وقّعت بلجيكا ، وفرنسا ، واللوكسمبورغ ، وهولندا،

والمملكة المتحدة، على هذا الميثاق في ١٧ آذار سنة ١٩٤٨ تحت اسم معاهدة بروكسل . وقد تعهدت هذه البلدان بإقامة نظام دفاعي مشترك ، مع تقوية الروابط الاقتصادية والثقافية فيما بينها بمساعدة الولايات المتحدة. فكان في هذا مفهوم للدفاع الجماعي الجديد لم يسبق أن قام مثله في التاريخ ، وتحالف أوثق من جميع الأحلاف السابقة .

وقد أصبح هذا التحالف محسوساً بعد بضعة أشهر من توقيع المعاهدة،وذلك بخلق منظمة سمّيت « منظمة دفاع الاتحاد الغربي » . وأصبحت فونتنبلو مركزاً رئيسياً للقادة العامين (المارشال مونتغمري ، والجنرال دو لاتر دو تاسيني ، والسير جيمس روب مارشال الجو ، والفيس اميرال جوجار) .

ثم تحول الاتحاد الغربي الى حلف شمالي الأطلسي ، ووقعت عليه في ٤ نيسان سنة ١٩٤٩ دول الاتحاد الغربي ، والولايات المتحدة ، وكندا ، والدانمارك ، وايطاليا ، والنرويج، والبرتغال ، وقد انضمت اليه اليونان وتركيا سنة ١٩٥٢، وألمانيا الغربية سنة ١٩٥٥ . وهذه المعاهدة التي ُوقعت لمدة عشرين عاماً كانت تنص في الأساس على تأمين الدفاع المسلح عن الدول الأعضاء في حالة الاعتداء على إحداها . وقد اشُترط أن «الأعضاء ... بتطوير وسائلهم الخاصة، وبتبادل المساعدة يحافظون على قدرتهم الفردية والجماعية في الصمود أمام هجوم مسلح وينمونها » .

وهذا يعني أن كل دولة تقدّم، بحسب إمكاناتها، المساعدة التي ُتطلب منها: قوى مسلحة ، تمركز ، خدمات مختلفة . وهــذا الالتزام يجر الى الضرورات التالية : وحدة القيادة ، خطة مشتركة ، توحيد الأعتدة والوسائل . والواقع أن حلف شمالي الأطلسي يتجاوز إطار تحالف عسكري ، وُتستشفّ منه إمكانية التعاون في جميع الحقول . وهكذا نرى للمرة الأولى في التاريخ ، ُترسم منذ وقت السلم ، طريقة مخصصة لتأمين الدفاع المشترك عن أكثر من (٣٨٠) مليون نسمة موزعة في القارات الأربع . فينتج عن ذلك شكل جديد

لحرب التحالف وللحرب بحصر المعنى ، التي تقاد بالطاقة الكاملة لجميع أعضاء التحالف ، بواسطة ميكانيكية « موحدة » ، فروعها الأساسية هي التالية :

– الهيئة الاستشارية المؤلفة من وزراء الشؤون الخارجية .

– لجنة الدفاع ، المؤلفة من وزراء الدفاع الوطني ، والمكلفة بوضع خطط الدفاع المشترك .

– اللجنة العسكرية ، أي اجتماع رؤساء أركان الحرب ، وهدفها وضع مخطط سياسي وعسكري عام للجنتها التنفيذية ، وهي المجموعة الدائمة المؤلفة من ممثلي رؤساء أركان حرب الدول الثلاث الأساسية (الولايات المتحدة، فرنسا، المملكة المتحدة) .

– المجموعات الاستراتيجية الاقليمية الخمس : ١ً – مجموعة اوروبا الشمالية (الدانمرك، النرويج، المملكة المتحدة) ؛ ٢ً – مجموعة اوروبا الغربية (بلجيكا، فرنسا ، هولندا ، والمملكة المتحدة) ؛ ٣ً – مجموعة اوروبا الجنوبية (بلدان البحر المتوسط الغربية، وفرنسا، وايطاليا، والمملكة المتحدة) ؛ ٤ً – مجموعة الولايات المتحدة و كندا ؛ ٥ً – مجموعة شمالي الأطلسي (جميع الدول الأعضاء ما عدا ايطاليا واللوكسمبورغ) .

هذه هي المجموعات التي يقع على عاتقها أن تقترح على اللجنة العسكرية خطة الدفاع عن كل منطقة بواسطة المجموعة الدائمة .

أما الهيئة الأستشارية الممثلة بهيئة استشارية تنوب منابها في أوقات انقطاعها عن جلساتها السنوية ، فقد أوصت الدول الأعضاء « بتركيز جهودها لخلق قوى جماعية متعادلة في التنظيم التدريجي للدفاع عن منطقة شمالي الأطلسي» . ويعتبر هذا مفهوماً جديداً في إعداد الدفاع المشترك : أي تعاون التنظيمات الوطنية ، لتأمين مساهمة جذرية لكل عضو من الأعضاء ، وذلك لتحقيق وحدة قتال مشتركة متوازية. إذ لا شيء كان متعادلاً، في الأصل، في الهيئة العسكرية المؤلفة، نظرياً ، من جميع القوى المسلحة في الدول الأعضاء . ولم تكن تقوم أية وحدة

في القيادة ، وكانت مناطق الاحتلال الاميركية ، والفرنسية ، والبريطانية ، تتشابك ، وخطوط التموين تتقاطع . ومثالاً على ذلك ، كان خط الاميركيين ينطلق من برَيْم ، ويقطع المنطقة البريطانية بكاملها. فكان على التنظيم الجديد إذن أن يواجه مشكلتين: الدفاع ضد المعتدي السوفياتي، وقيادة حرب موحدة.

أما فيما يتعلق بالعمل الأول ، فيتحتم الاتفاق على خطة دفاعية ، بتطبيق الأفكار السائدة. فكان يكفي من وجهة النظر هذه، استغلال الخبرة المشتركة، طالما كانت الأسلحة ، في الأصل ، هي نفسها التي كانت سنة ١٩٤٥ ، ولم يطرأ عليها إلا تحسن طفيف ، وبتعبير آخر ، كان الأمر يتعلق ، في السنوات الاولى، بقيادة حرب « تقليدية » . والواقع أن هذه المفاهيم، مع تطور السلاح النووي، قد تبدّلت فيما بعد ، بما يوافق هذا العنصر الجديد .

إلا أنه منذ البدء عرضت في حقل التعليم خاصة مسألة قيادة حرب « موحدة » . وكان الأمر يتعلق :

١ً – بخلق قوى مسلحة موحدة فوق بعض الأنساق ، تكون خاضعة لقيادة مشتركة .

٢ً – إنشاء هيئة مذهبية لتأمين قيادة العمليات .

والواقع أن السبب الدائم لضعف الأحلاف هو الصعوبة في جعل جيوش بقيت تحت قيادة وطنية تناور في سبيل هدف استراتيجي مشترك . وكان فوش الذي عُين قائداً لجيوش الحلفاء سنة ١٩١٨ يقول : « منذ أن عرفت ما هو التحالف نقص إعجابي بنابليون». ولكن، أمام خصم قوي طارىء، بامكانه أن يطلق بدون إنذار سابق جيشاً متأهباً للحرب ضد الأمم الغربية ، فإن الطرق القديمة لقيادة الحرب لم تعد مقبولة. فينبغي إذن، في الدرجة الأولى ، خلق قوة مسلحة .O.T.A.N موحدة ، حسب التعبير الجديد، وليس هذا بالأمر السهل. والواقع أن القيادة العسكرية ، على أعلى مستوى ، تمثل بالنسبة لدولة ما خاصة من خصائص السيادة المطلقة . فكان ينبغي البدء بتبديل المفهوم القديم للسيادة،

إذ أن إقامة قوة موحدة يفرض وضع جنود وطنيين تحت إشراف قائد الحلف في كل منطقة من المناطق ، يكون قد مارس عليهم منذ وقت السلم بعض المراقبة .

ومنظمة حلف شمالي الأطلسي ، عملياً ، هي مجموعة سياسية واقتصادية وعسكرية ، وهي نوع من « الدولة المتفوقة » تجمع تحت امرة قيادة واحدة هي الهيئة الاستشارية وزارة حقيقية ذات اتجاهات متعددة ، توجه بواسطة اللجنة العسكرية القيادات والتشكيلات العسكرية التي تؤلف هيكل القوى الدفاعية O.T.A.N. وكان ينبغي ألا يكتفي باعطاء هذه القوى مخططات وحسب ، بل كذلك تعيين حد أدنى من المذاهب المشتركة . وتمارس هذه الرسالة :

- بالتوجيهات التي تحررها اللجنة الدائمة .
- بتوصيات القيادات العليا .
- بتعليم مراكز التدريس ومدارس الحلفاء ، وأشهرها مدرسة الدفاع التابعة للـ O. T. A. N في باريس .
- بتمارين ومناورات كثيرة على صعيد الحلفاء .

إن هذا التنظيم يفسر مفهوماً جديداً لحرب التحالف المتوقعة منذ وقت السلم . فقد كُلفت هيئة حليفة ضخمة بتنسيق السياسات العسكرية في الدول الأعضاء ، وكذلك تدريب وتجهيز القوات الموضوعة تحت تصرف الحلف ، والخاضعة في قسم كبير منها ، لأركان حرب موحدة .

وفي سبيل الدفاع عن أوروبا اعتُنق المفهوم الاستراتيجي « للدرع » و « السيف » منذ تأسيس الـ O. T. A. N. . وهو يرتكز على غطاء أو «درع» يحتوي مجموعة من الوحدات الكبرى عُين عددها - نظرياً - بثلاثين فرقة من النموذج الاعتيادي ، معززة بأسلحة تكتيكية ذرية ، ومساندة بقوى جوية ، وهي مكلفة بالدفاع لدى الاحتكاك بالستار الحديدي . وفي حماية هذا الغطاء يتوجب على « السيف » الذري ، السلاح الرهيب ، «الرادع» ، المؤلف من قيادة

الجو الاستراتيجية الاميركية (.S. A. C) ، ومن قيـــادة القصف الجوي البريطانية أن يرد بسرعة وعنف ، بهجوم ذري على كل اعتداء روسي .

ولقد أعيد البحث في هـذا المفهوم ، أي الرد النووي الآلي بسبب توصل الاتحاد السوفياتي الى مساواة الحلفاء في الأسلحة الذرية . وتطبيق هذا المفهوم بعنف يعرّض ، منـــذ الآن ، – حتى في حالة هجوم صغير – إلى جرّنا الى « حرب مخيفة » ضد عدو مجهز هو أيضاً بسلاح الرعب . ولن يبقَ أمام الغرب إلا الاختيار بين كل شيء أو لا شيء ، أي بين التدمير برد سريع من العدو أو الاستسلام ...

وقــد اقترح المشرعون ، وخاصة في أميركا ، هنري كيسنغر ، والجنرال تايلور ، مفهوماً جديداً للدفاع الغربي ، هو «الضربة المرنة» ، أي الرد السريع « المثل بالمثل » ، على جميع أنواع التهديد وكل خطورتــــه . ويقول هنري كيسنغر في ما يتعلق بهذا الموضوع أنه يجب إيجـاد استراتيجية جديرة بمساندة دبلوماسيتنا بدون أن نعرّض ، في كل مرة ، وجودنا كأمة ، لأن الحرب التي تنتج دائماً من العلاقة بين وسائل الإكراه والغاية المقصودة هي غالبـاً محدودة ، إذ أننا لا نلزم أنفسنا حتى النهاية من أجل أي هدف كان . وعلى ردنا العفوي إذن أن يعرض على المعتدي المحتمل أخطاراً تفوق ما كان قد تصوره .

إلا أن مطابقة الرد السريع على كل حالة خاصـــة يفرض زيادة في القوى التقليدية ، وهذا أمر يصعب على الدول الأوروبية وحدها أن تحققه . وفضلاً عن ذلك ، كما سبق وأظهروا ، أن اعتناق مفهوم الضربة المرنـة يجعل تطبيق الثأر الذري أفضل وأمرن : إذ أنه يخفف « من تغيير الرأي » . ويقول رجال سياسيون ، أو اخصائيون عسكريون أوروبيون ، أن تدخل سلاح الرعب هو أقل تصديقاً بالنسبة للروس بمقدار ما يتوقف على الإرادة الجيدة « لوعد شخص واحد » هو حاليـــاً مهدد في عقر داره بالصواريخ السوفياتية . وهكذا نرى الزعامة الأميركية في مـا يتعلق باستعمال السلاح الأساسي معروضة على بساط

البحث ، في وقت واحد ، مع الاحتكار الذري الذي تمارسه القوى الأنكلو – سكسونية ، وخاصة الولايات المتحدة ، لأنه بلعبة نقل التأزم المتتابعة ، فكل حرب تقليدية يمكن دائماً أن تتحول الى إرهاب نووي .

ففي هذه الشروط ، افتتحت مناقشة في قلب العالم الأطلنطي ، بين مناصري الفيتو الأميركي وخصومه . ويطلب هؤلاء الخصوم الشركاء الأوروبيين في الحلف حق الاشتراك في اتخاذ القرار لاستعمال السلاح الذري ومثالاً على ذلك فقد نادى « ألاستير بوشان » ، مدير مؤسسة الدراسات الاستراتيجية ، بايجاد جمعية للدفاع الأوروبي (وقد يكون ذلك للاتحاد الأوروبي الغربي ! ، تكون شريكة للولايات المتحدة ، تتقاسم معها مسؤولية التوسع الذري ، والحق بامتلاك سلاح نووي مشترك

وجرت مناقشة ثانية تتعلق بطبيعة القوى النووية التي ستوضع للدفاع عن الغرب . ففرنسا – خوفاً «من أن تمحى كأمة» ، إذا كان دفاعها النووي يتوقف على إرادة خارجية – باشرت بصنع قوتها الضاربة الوطنية ، وهي تقترح على انكلترا الجمع بين الوسائل الفرنسية والبريطانية ، من أجل إنشاء سلاح مشترك يوضع تحت تصرف الدفاع الاوروبي . وقد عارضت حكومة واشنطن دائماً توزيع الأسلحة الذرية ، وطالبت بالمحافظة على الزعامة الاميركية وذلك بسبب احتكارها شبه التام للقوة النووية .

وفي الحقيقة ، بين السرّ الذري في الولايات المتحدة الذي يغار عليه الكونغرس الاميركي ، حتى ولو كان ذلك ضد رأي رئيس الجمهورية – والإرادة الفرنسية في الاستقلال ، والتغييرات أو الترددات البريطانية في ما يتعلق بهذا الأمر ، يصعب الوصول الى مخرج مشترك . أما المؤتمر الاطلنطي الذي عقد في اوتاوا ، في ايار سنة ١٩٦٣ ، فلم يتوصل إلا الى حل تسوية : بتأليف قوة من « أمم متعددة » تجمع بين بعض الوسائل الوطنية وبعض المساهمة الاوروبية على الصعيد النووي . ولكن اميركا احتفظت بحقها في التنظيم . ونادت بقوة «متعددة

الجوانب » ، أي مترابطة ، مع المحافظة ، على امتياز التقرير الاميركي للاستعمال .

فالقوى الذرية ستكون إذن وطنية ، أوروبية أو أطلنطية ، أما فرق « الدرع » فيجب أن تكون متحركة وسريعة ، تؤلّف خصوصاً على أساس الزمرة ، لكي تنجو من التهديدات النووية ، والبيولوجية والكيمائية .

ومن جهة أخرى ، فإن الاستراتيجية السياسية والعسكرية للـ .O.T.A.N ، أمام خطر الحرب الباردة ، هي مجبرة على إدخال عمل سيكولوجي على نطاق واسع ، لكي تؤمن للتحالف سنداً كبيراً لدى الرأي العام .

إن الحرب السيكولوجية القديمة قِدم العالم ، والتي كان يمارسها فيما مضى الأبطال الأقدمون عندما كانوا يتشاتمون قبل المعركة ، قد عرفت في هذه الاوقات الأخيرة تطوراً غير منتظر في مراحل « الحرب الباردة » ، التي اعتدناها في هذه السنوات الأخيرة . ومنذ وقت السلم يجب على الـ .O.T.A.N أن تشن الحرب في هذا الحقل . والواقع أن نجاح التحالف الغربي يتوقف كثيراً على المساندة التي يلقاها من الرأي العام في الدول الأعضاء . وهكذا فقد قررت الهيئة الاستشارية منذ سنة ١٩٥٠ ، وجوب اطلاع الشعوب على أهداف ومنجزات المعاهدة . فأوجدت الهيئة الاستشارية لجنة للإعلام والعلاقات الثقافية لدراسة أفضل الوسائل المؤدية الى تنوير الشعوب الغربية . والواقع أن نتائج مهمة قد حُصل عليها في حقل الاعلام المدني للـ .O.T.A.N : رحلات للصحافيين ، قافلة السلام ، أفلام ، صحافة (أخبار الـ .O.T.A.N ، وكتاب الـ .O.T.A.N) الخ ... وبُذل جهد للنشر لصالح القوى المسلحة المتحالفة بنوع خاص ، وكان له هدف مزدوج : إعلام الضباط والجنود عن أهداف وتطور التنظيم الأطلنطي ، وتسهيل العلاقات بين أعضاء التشكيلات المختلفة والمدنيين في أمكنة إقامتهم .

وأدخلت القوى المسلحة ، من جهتها ، الحرب السيكولوجية في وحداتها تحت شكلها المزدوج : الهجومي (التأثير على العدو) ، والدفاعي (الاحتفاظ بمعنوية الصديق) . وإن الجيش الاميركي الذي دفع الى العمل بسلسلة من أعضاء

الأركان العامة وتشكيلات للتنفيذ (مكبرات صوت ، مناشير ، الخ) تقدم كثيراً في هذا المجال .

ولكن أفضل مثال في هذا النوع قدمته لنا التنظيمات الشيوعية في العالم أجمع ، فقد دفعت الى العمل ، في هذا المضمار ، ميكانيكية قاسية لا ترحم . ولقد أحس بها مقاتلونا في الهند الصينية ، في مواجهة « فييت منه » [1] الذي لقنهم أمثولة كبرى في الاستراتيجية الثورية على أساس العمل السيكولوجي . وكانت هذه الآلة التي دفعوا بها الى العمل مؤلفة من درجات ثلاث .

- « ليان فيات » (تجمع مؤسسات الدولة) .
- تسلسل الدرجات الإقليمية .
- تسلسل الدرجات الحزبية .

إن هذه التشكيلات كانت موجودة في الهند الصينية ، حتى في المناطق التي هي تحت مراقبتنا . وكانت تدفع الى العمل بتقنية من الدعاية توافق جميع الفئات : من مدنيين ، وأسرى ، وجنود نظاميين أو إضافيين . لقد عرف الفرنسيون ذلك في معسكرات الفيتناميين ، كما عانى منه الأميركيون الأسرى لدى صينيي كوريا .

وإن في كل هذا لطريقة للحرب يجب على قوى الـ O. T. A. N. أن تحسب لها حساباً ، طالما كانت « حرب النفوس » قد أصبحت ، منذ الآن ، أحد المظاهر المهمة لقيادة العمليات في المستقبل ، بمقدار ما هي العمليات العسكرية الكلاسيكية أو غير التقليدية .

وقصارى القول أن الفكرة العسكرية قد تطورت منذ سنة ١٩٤٥ تحت مظهرين مزدوجين : فقد طرأ أولاً على هذه المذاهب تطور في حقل الأنظمة ، حيث امتد مفهوم الدفاع الجماعي إلى قارات عدة ، وتفتح في منظمة

---

١ – راجع الدراسة : استراتيجية فييت منه الثورية (لموند ، ٣ و ٤ آب سنة ١٩٥٤).

O. T. N. A. . ومن الجهة السوفياتية فقد بنيت كذلك ، ولكن تحت شعار أشمرس سلطة ، كتلة كثيفة وقاتمـــة ، تدفع الى العمل تنظيمات وتقنيات ديكتاتورية .

وفي الحقل التقني للعمليات الحربية تطورت كذلك الأفكار في المعسكرين، وراحت تبحث عن طرق عمل يزداد تعقيداً ، تبدأ من الوسائل التقليدية الى استخدام وسائل التدمير الجماعي ، آخر مكتسبات العلم البشري ، إلى « حرب ـ النفوس » الشهيرة التي قد تكون أكثر الحروب هولاً .

الخلاصة

بعد دراسة النظريات والحوادث التي أشرنا اليها في هذا الكتاب الموجز، يبدو لنا تاريخ المذاهب العسكرية – كما سبق وأعلنا في المقدمة – كأنه تطور طويل يوازي تطور البشرية . ذلك ان العلم البشري ، منذ عصر المغاور الى عصرنا الذري، كان يضع دائماً مكتسباته الأخيرة في خدمة مشرّعي الاستراتيجية والتكتيك ، حتى ان الفكرة العسكرية ، بصورة عامة ، قد تمكنت دائماً من أن تتبع خطوة خطوة تطور الفكر البشري .

أما وقد وصل فن الحرب الى هذه المرحلة الحالية من التطور، فإنه – والحق يقال – يعرض مشكلة مؤلمة بالنسبة للدفاع عن بلداننا . ففي الاستراتيجية والتكتيكية مبادىء أساسية تصلح لكل الاوقات ، وقد عرفنا أن سان تسه هو الذي أعلنها ، وأن قيصر ونابليون قد طبّقاها ، ثم عبّرت عنها من جديد جماعة من المشرعين العسكريين الحديثين بصورة واضحة جداً، من كلوزويتز الى فوللر . بيد أن أشكال الحرب ، خارجاً عن هذه المبادىء الاساسية ، تتطور باستمرار ، وتتساءل شعوب التحالف الغربي بقلق وحسرة عن نوعية حرب المستقبل وطرق سيرها . وفي الحقيقة أن أخصائيين خياليين يتكهنون بثلاثة مظاهر ممكنة للعمل العسكري في المستقبل :

أولاً الحرب المسماة بـ « التقليدية » والتي تحسّن وسائلها وعتادها ، حتى يصعب الاستغناء عنها ؛ ثم الحرب النووية بواسطة القنابل والصواريخ والأقمار

الصناعية التي تسبب كوارث قد يصعب تلافيها ؛ وأخيراً حرب المؤخرات حيث يعمل أناس هبطوا من السماء أو تدفقوا فجأة من الخفايا ، فيتغلغلون في داخل البلاد ، وسلاحهم مغامرات عسكرية وتخريب من أي نوع ، بما فيه التخريب المعنوي ، تساعدهم آليات تعمل في الأبعاد الثلاثة ، فيشلون حركة البلاد الاقتصادية ، ويدمرون مراكزها الحيوية ، عسكرية كانت أم سياسية أم ادارية . وهذه الأخطار هي التي تعطي الدفاع البري (D. O. T,) كل معناه . وهي أيضاً أساس قواعد « الدفاع المدني » و « مصلحة الدفاع » التي أسست حديثاً في فرنسا .

وستقدم لنا الحقيقة ، على الأرجح ، خليطاً من هذه الأنواع الثلاثة للحرب، في إطار العمليات الاستراتيجية والتكتيكية . وعلى هذا الأساس ستكون حرب المستقبل ، أكثر من أي وقت مضى ، « مأساة » تستهوي وتثير الألم ، كما أعلنها كلوزويتز الكبير منذ أكثر من مائة سنة . وإذا كانت الوسائل تتغير ، في الواقع، فيبقى دائماً هذا الأمر الثابت في الحرب ؛ وهو أن الانسان لا ينفك يبحث عن مذاهب ووسائل جديدة ، ومن ثم يسعى إلى عرضها . وهكذا سيستمر هذا الصراع الأبدي بين القنبلة والدرع ، تحت مظاهره الكثيرة التنوع ، خلال تقلبات وتطورات تاريخ العالم .

فهرست

منشورات عويدات ١٨٠ / ١٢ / ١٩٧٠

Colonel Fernand SCHNEIDER

HISTOIRE DES DOCTRINES MILITAIRES

Texte traduit en arabe
par
Farid ANTONIOS

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth - Paris

زدني علماً

● الاسلام / هنري ماسيه (١١) ....

● أضواء عربية على أوروبا في القرون الوسطى / نخبة من الأساتذة والمستشرقين (٢٠٥) ....

● تاريخ الأساطير / جان بيار بايار (١١٥) ....

● تاريخ بابل / مارغريت روتن (٩٢) ....

● تاريخ الجزائر المعاصر / ش. روبير أجيرون (١٣٨) ..

● تاريخ الحضارة الاوروبية / كلود دلماس (١٨١) ......

● تاريخ السوسيولوجيا / غاستون بوتول (٣٦) ....

● تاريخ العرقية / جان بوارييه (٧٥) ....

● تاريخ علم الآثار / جورج ضو (١٤٠) ....

● تاريخ قرطاج / مادلين هورس ميادان (٣٢) ....

● الحضارات الافريقية / دنيز بولم (٦٢) ....

● قيمة التاريخ / جوزف هورس (٧٦) ....

● تاريخ الثورة الفرنسية / ألبير سوبول (مجلد) ....

● فلسفة الثورة الفرنسية / برنار غروتويزن (مجلد) ....

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth – Paris